الباب التاسع

قيصر

١٠٠ — ٤٤ ق م

الفصل الأول

الرقيع

يقول يوليوس قصر إنه ينتمى إلى يولوس أسكانيوس Julus Ascanius ابن إينياس Aeneas ابن ڤينوس Venus الزهرة) ابنة چوپتر : أى أنه بدأ حياته إلها واختتمها إلها . وكان آل يوليوس من أقدم الأسر فى إيطاليا وأعلاها شرفاً ، وإن كان الدهر قد عدا عليها فذهب بمالها وأفقرها ، فقد كان أحد أفراد هذه الأسرة يوليوس قنصلا فى عام ٤٨٩ ، وكان منها قنصل آخر فى عام ٤٨٢ ، وكان ڤوبسكس يوليوس Vopiscus Julius قنصلا فى عام ٤٧٣ ، وسكستس يوليوس Sextus Julius فى عام ١٥٧ ، وآخر فى عام ٩١(١) . وقد ورث عن عم لزوجته يدعى ماريوس — كما يرث الناس فى بعض الأحيان عن أعمامهم — ميلا إلى المبادئ السياسية المتطرفة ، وكانت أمه أورليا سيدة وقورة حكيمة مقتصدة فى تدبير شئون بيتها الصغير ، وكان هذا البيت فى حى سابورة — وهو حى من الطراز القديم ، ومن الأحياء التى تكثر فيها الحوانيت والحانات والمواخير . فى هذا البيت

ولد قيصر فى عام ١٠٠ ق . م ، وكان مولده نتيجة لجراحة هى التى كانت سبباً فى تسميته باسمه الأول(*) .

ويقول سيوتونيوس Suetonius فيما نقله عنه هلند Holland إن قيصر هذا كان شخصاً مطيعاً سلس القياد إلى حد يدعو للعجب ، كما كان شديد الميل إلى التعلم » ، وكان المعلم الذى يتولى تعليمه اللغتين اللاتينية واليونانية وعلوم البلاغة رجلا من الغاليين . وشرع قيصر مع هذا المعلم يعد نفسه على غير علم منه للفوز بأعظم فتوحه كلها . ذلك أن الشاب أظهر استعداداً عظيما للخطابة ، وبدأ فى شبابه يكتب ويؤلف . ثم أنقذه من هذه النزعة تعيينه ياوراً حربيا لماركس ثرمس Marcus Thermus فى آسية . وأحبه نقوميدس Nicomedes والى بيثينيا Bithynia حباً دفع شيشرون وغيره من الثرثارين المغتابين إلى أن يعيروه بأنه « أسلم عذرته للملك »(٢) . ولما عاد إلى رومة فى عام ٨٤ تزوج كوساتيا Cossutia استجابة لرغبة أبيه . فلما أن توفى والده بعد زواجه منها بزمن قليل طلقها وتزوج كرونليا Cornelia ابنة سنا Cinna الذى تولى قيادة الثورة بعد ماريوس . ولما تولى صلا زمام السلطة أمر قيصر أن يطلق كورنليا ، فلما أبى أن يطيع هذا الأمر صادر صلا أملاكه التى ورثها عن أبيه كما صادر بائنة كورنليا وسجل اسمه فى المحكوم عليهم بالإعدام .

ولما علم قيصر بذلك هرب من إيطاليا وانضم إلى الجيش المحارب فى قليقية ، حتى إذا مات صلا عاد إلى رومة (٧٥) . ولما رأى أن أعداءه هم أصحاب الأمر والنهى فيها غادرها مرة أخرى إلى آسية . وأسره القراصنة فى الطريق واقتادوه إلى كمين لهم فى قليقية ، وعرضوا عليه أن يطلقوا سراحه نظير فدية قدرها عشرون

(*) وكانت الجراحات حتى فى ذاك الوقت البعيد وسيلة قديمة من وسائل الولادة . وقد ورد ذكرها فى القوانين المنزوة إلى نوما Numa . على أن اسم قيصر لم يكن مشتقاً من هذه الجراحة (Caesus ad utero matris) فقد سمى به من قبله كثيرون من أسرة اليوليوسيين

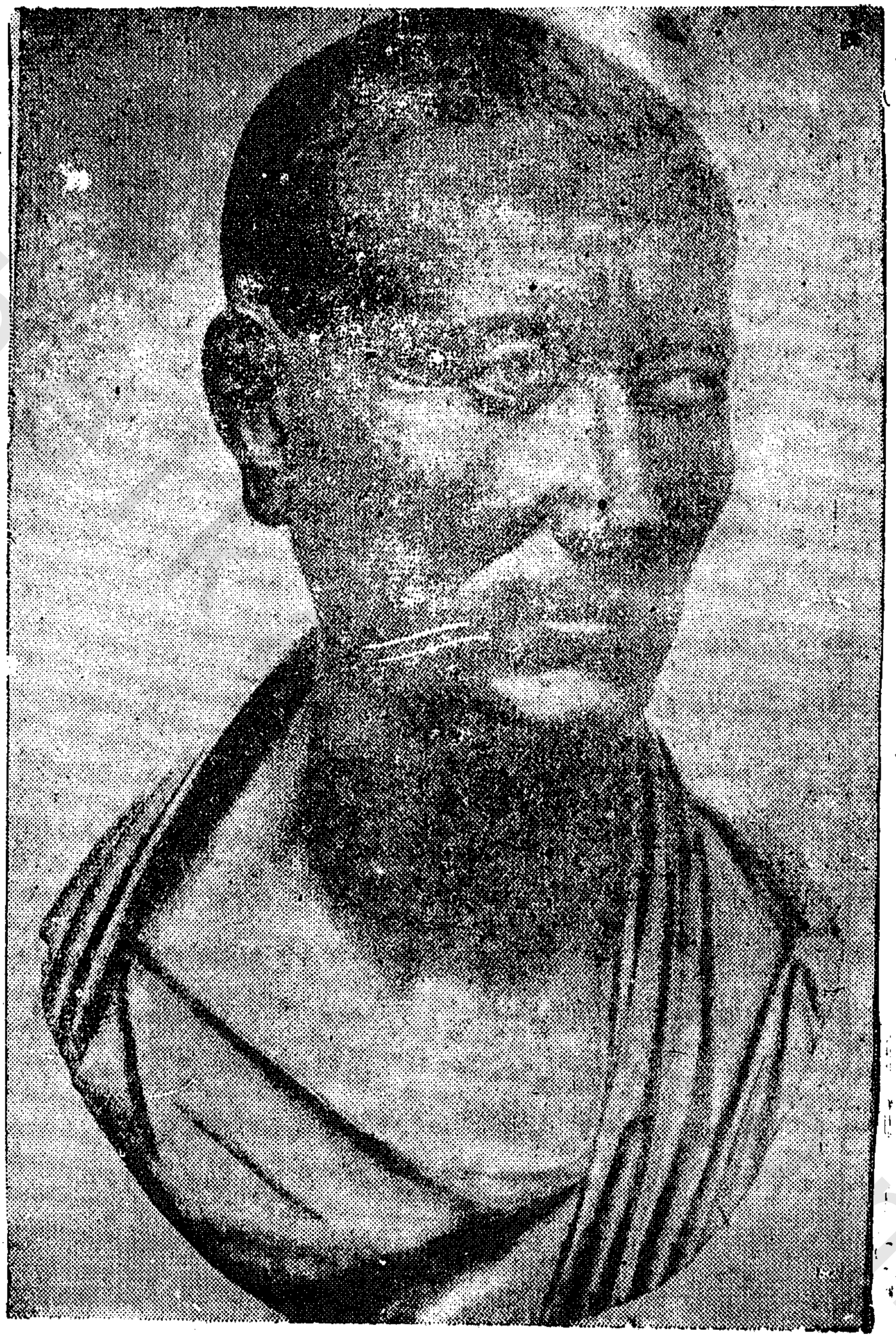

(شكل ١١) قيصر من حجر البازلت الأسود – متحف برلين

Obeikandl.com

تالنتا (٧٢٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، فلما سمع ذلك لاسهم على أنهم لم يقدروه حق قدره ، وعرض عليهم هو نفسه أن يعطيهم خمسين تالنتا . وأرسل خدمه ليأتوه بالمال ، وأخذ فى هذه الأثناء يسلى نفسه بكتابة القصائد وقراءتها على آسريه ؛ فلما لم تعجبهم قصائده سماهم برابرة همجا ، وأوعدهم بأنه سيشنقهم فى أول فرصة تتاح له . ولما جاءه الفداء أسرع بالذهاب إلى ميليطس Miletus وأعد السفن والملاحين ، وطارد القراصنة وقبض عليهم ، واستعاد منهم الفداء ، وصلبهم ؛ ولكنه وهو الرجل الشفيق الرحيم قطع رقابهم أولا(٣) ، وذهب بعدئذ إلى جزيرة رودس ليدرس فيها البلاغة والفلسفة .

ولما عاد إلى رومة وزع جهوده بين السياسة والحب ؛ وكان وسيم الوجه وإن كان سقوط شعر رأسه فى هذه السن المبكرة أخذ يشغل باله . ولما توفيت كرنليا فى عام ٦٨ تزوج بمپيا ابنة حفيدة صلا ؛ وإذ كان هذا الزواج زواجاً سياسياً محضاً فإنه لم يتورع عن العلاقات الجنسية غير المشروعة حسب عادة ذلك الوقت ؛ ولكن هذه العلاقات بلغت من الكثرة ومن التنوع الشاذ حداً جعل كوريا Curia (والد قائده الأخير) يصفه بقوله إنه « زوج كل امرأة وزوجة كل رجل ommium mulierum vir et ommium virorum mulier »(٤) . وظل يتبع هذه العادات نفسها فى حروبه فيعبث مع كليوبطرة فى مصر ، ومع الملكة إيونو Eunoe فى نوميديا ، ومع كثيرات من النساء فى غالة ، حتى كان جنوده يلقبونه فى مزاحهم بلقب « الزانى الأصلع » . ولما تم له النصر فى بلاد الغاليين أخذ جنوده ينشدون بيتين من الشعر المقفى يحذرون فيهما جميع الأزواج بقولهم إن عليهم أن يغلقوا الأبواب على زوجاتهم ما دام قيصر فى المدينة . وكان الأشراف يحقدون عليه لسببين أولهما أنه قضى على امتيازاتهم ، وثانيهما أنه أفسد زوجاتهم ؛ وطلق بمپى زوجته لاتصالها بقيصر ، ولم تكن كراهية كاتو الشديدة له منبعثة عن أسباب فلسفية خالصة بل كان من أسبابها أن أختا له غير شقيقة تدعى

سرڤليا **Servilia** كانت أحب عشيقات قيصر له ؛ ولما ارتاب كاتو فى صلات قيصر بكاتلين وظنه شريكا له فى مؤامرته طلب إليه فى مجلس الشيوخ أن يقرأ جهرة رسالة جيء بها إليه فى تلك اللحظة ، فما كان من قيصر إلا أن أوصلها إليه دون تعليق عليها ، فإذا هى رسالة حب بعثت بها إليه سرڤليا(٥) . وظلت تهيم بحبه طوال حياته ؛ وكانت ألسنة السوء القاسية تتهمها فى أخريات أيامها بأنها أسلمت ابنتها ترشيا **Tertia** إلى قيصر لتشبع شهواته . وحدث فى مزاد علنى أثناء الحرب الأهلية أن باع قيصر إلى سرڤليا ضياعاً صادرها من جماعة من الأشراف المعاندين بثمن اسمى زهيد . ولما أظهر بعضهم دهشته من ضآلة الثمن قال شيشرون فى سخرية لاذعة كانت خليقة بأن تطيح برأسه إنه **tertia deducta** ، وهى عبارة تحتمل معنيين فقد يكون معناها أن الثمن « ينقص ثلثه » وقد تكون إشارة منه إلى الإشاعة الرائجة وقتئذ وهى أن سرڤليا قد جاءت بابنتها ترشيا إلى قيصر . وأصبحت ترشيا فيما بعد زوجاً ليكيوس القائل الأول لقيصر ، وهكذا يختلط عشق الخلائق بالفتن التى تندلع نيرانها فى الدول .

ولعل هذه الظروف قد ساعدت على رفع قيصر إلى أعلى الدرجات ، ولعلها أيضاً قد أعانت على سقوطه . فقد كانت كل امرأة فاز بحبها صديقة له عظيمة النفع ، وخاصة فى معسكرات الأعداء ؛ وقد حافظت معظمهن على وفائهن له حتى بعد أن هدأت عاطفة حبه لهن وأضحت لا تزيد على المجاملات المألوفة من الرجال إلى النساء ؛ من ذلك أن كراسس أقرض قيصر أموالا طائلة ليستخدمها فى الدعاية لنفسه وهو يطالب بالقنصلية فيرشو بها الشعب ، ويقيم له الألعاب ، وذلك على الرغم مما كان يشاع وقتئذ من أن زوجته ترتلا كانت تعشق قيصر .

وحسبك دليلا على مقدار هذه الأموال أن قيصر كان فى يوم ما مديناً له بثمانمائة تالنت (٢٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ولم يكن الباعث على هذه القروض هو الكرم والصداقة ، بل كانت بمثابة اشتراك من أصحابها فى الحملات

تود إليهم فى صورة مساعدات سياسية أو غنائم حربية ؛ فقد كان كراسس — كما كان أتكس — فى حاجة إلى من يحمى ملايينه وتتيح له فرص استثمارها . وكان معظم الساسة الرومان فى ذلك الوقت ينوءون بمثل هـذه « الديون » . فقد كان ماركس أنطونيوس مثلا مديناً بنحو ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس ، وشيشرون بستين مليوناً ، وميلو Milo بسبعين مليوناً على أن من الجائز أن تكون هذه الأرقام افتراء على هؤلاء الساسة .

وجملة القول أنّ علينا أن نتمثل قيصر فى أول حياته فى صورة السياسى الذى لا ضمير له ، والرقيع المستهتر ، الذى بذلته السنون والتبعات شيئاً فشيئاً فجعلته من أقدر رجال الحكم وأرعاهم للحرمات فى تاريخ العالم . وينبغى لنا — ونحن نطرب من عيوبه ونقائصه — ألا ننسى أنه كان رجلا عظيما على الرغم من هذه العيوب والنقائص . وليس فى وسعنا أن نسوى بين أنفسنا وبين قيصر بقولنا إنه كان يضلل بالنساء ، ويزشو الزعماء ، ويؤلف الكتب .

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسى الذى قاومه فى شبابه أخذ ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية ، وكان كل فتح حربى جديد يزيد فى ثراء رومة كما يزيد فى فسادها ووحشيتها ، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت غمارها عدا حرب الطبقات ، وأزال تدمير قرطاجنة آخر عائق قائم فى سبيل الانقسام والفتن فى المدينة ، وجوزيت رومة على تملكها العالم بثورات طاحنة وفتن صماء دامت قرناً من الزمان .

الفصل الثانى

القنصل

بدأ قيصر حياته السياسية بأن تحالف مع كاتلين سراً واختتمها بأن أعاد الحياة إلى رومة . ذلك أنه لم يكد يمضى عام واحد على موت صلا حتى قدم للمحاكمة نيوس دلابلا Onaeus Dolabella أحد العاملين فى حركة صلا الرجعية ، وكان قرار المحلفين على غير ما يشتهيه قيصر ، ولكن العامة هللت له حين هاجم ذلك القرار فى خطبة بليغة ردد فيها المبادئ الدمقراطية ، نعم إنه لم يكن يضارع شيشرون فى تحمسه وفكاهته ، أو فى جمله الموزونة القوية ، أو فى حدة لسانه . والحق أن قيصر كان يبغض أسلوب شيشرون « الأسيوى » لأنه اعتاد من أول الأمر ذلك الأسلوب الموجز القوى ذا البساطة الصارمة التى امتازت بها فيما بعد « تعليقاته » على الحربين الغالية والأهلية . على أنه رغم هذا كله لم يلبث أن صار أفصح الفصحاء فى رومة إذا استثنينا شيشرون نفسه(٦) .

واختير قيصر كوسترا فى عام ٦٨ ، وأرسل للعمل فى أسپانيا حيث تولى قيادة الحملات العسكرية التى سيرت لتأديب القبائل الوطنية ، فخرب مدنها ، ونهب من الأموال ما استطاع أن يوفى به بعض ما عليه من الديون . على أن هذه المدن قد حمدت له فى الوقت نفسه أن خفض فوائد قروضها من الماليين الرومان ، ولما قدم إلى مدينة جادز وشاهد فيها تمثالا للإسكندر الأكبر أخذ ياوم نفسه على أنه لم يعمل إلا القليل فى مثل السن التى فتح الفتى المقدونى حين بلغها نصف عالم البحر الأبيض المتوسط .

ثم عاد بعدئذ إلى رومة واندفع فى الصراع القائم وقتئذ فى سبيل المنصب والسلطان . فاختير إيديلا أو مشرفاً على المبانى العامة فى عام ٦٥ ، وأنفق أمواله

ـ أى أموال كراسس ـ فى تزيين السوق العامة بما أقامه فيها من المبانى والأعمدة الجديدة ؛ وأخذ يتودد إلى العامة بما كان ينفقه عن سعة على الألعاب ، وكان صلا قد أزال من الكبتول ما جمعه فيـــه ماريوس من شارات النصر كالأعلام والصور والمغانم التى تمثل صفات الرجل المتطرف القديم وانتصاراته ، فأعادها كلها قيصر إلى مواضعها واغتبط بعودتها جنود ماريوس القدامى أشد الاغتباط ، وأظهر بهذا العمل وحدة سياسته المناقضة لسياسة ماريوس ؛ واحتج المحافظون على هذه السياسة ، وعرفوا من ذلك الوقت أنه رجل يجب عليهم أن يعملوا للقضاء عليه .

وكان فى عام ٦٤ ق . م رئيساً لإحدى اللجان التى عينت للنظر فى بعض قضايا القتل ، فاستدعى للمثول أمام اللجنة من كان حياً من عمال صلا الذين عاونوه على وضع قوائم من حكم عليهم هذا القنصل ، وقضى على الكثيرين من هؤلاء العمال بالنفى أو الإعدام . وفى عام ٦٣ ق . م اقترع فى مجلس الشيوخ ضد إعدام من اشتركوا مع كاتلين ، وقال فى عرض خطابه إن الشخصية البشرية لا بقاء لها بعد الممات(٧) ؛ ويلوح أن قوله هذا كان الجزء الوحيد من خطابه الذى لم يسىء فيه إلى أحد . واختير فى تلك السنة نفسها رئيساً أعلى الدين الرومانى **pontifex maximus** ثم اختير فى عام ٦٢ بريتورا praetor وأمر فى ذلك العام بمحاكمة أحد زعماء المحافظين لاختلاسه بعض الأموال العامة . وفى عام ٦١ عين والياً على أسپانيا ولكن دائنيه حالوا بينه وبين السفر إليها ، وأقر فى ذلك الوقت أنه فى حاجة إلى ٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس إذا أراد ألا يمتلك شيئاً قط ، فتقدم كراسس لمعونته وضمنه فى جميع ديونه . وبذلك استطاع أن يسافر إلى أسپانيا ، ويشن حملات حربية مروعة على القبائل الثائرة ذات النزعة الاستقلالية . وعاد بعدها إلى رومة ومعه من الغنائم ما يكفى لأداء ديونه وملء خزائن الدولة بالمال ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن اقترح أن يقام له احتفال بنصره العظيم . ولعل

الأشراف قد أظهروا بعملهم هذا كثيراً من الدهاء وحصافة الرأى ، فقد كانوا يعرفون أن قيصر سيرشح نفسه لمنصب القنصلية ، وأن القانون ينص على ألا يرشح لها من كان غائباً عن البلاد ، وأن من يقام له احتفال بالنصر يجب أن يظل بحكم القانون بعيداً عنها إلى يوم الاحتفال — وحرص مجلس الشيوخ على أن يحدده بعد موعد الانتخاب . ولكن قيصر استبق يوم الاحتفال بنصره ، ودخل المدينة وأدار المعركة الانتخابية بجد ومهارة عجز معارضوه عن مقاومتهما .

وكان سبب نجاحه مهارته فى ضم بمبى إلى قضية الحرية . وكان بمبى قد عاد تواً من بلاد الشرق بعد أن قام فيها بسلسلة من الأعمال الحربية والسياسية المجيدة ، فقد طهر البحر من القراصنة ، وأمن بذلك سبل التجارة فى البحر الأبيض المتوسط ، وأعاد الرخاء إلى المدن التى كان رخاؤها يعتمد على هذه التجارة . وكان قد أرضى أصحاب المال فى رومة بفتح بيثينيا وبنتس وسوريا ، وكان قد خلع ماوكا وأجلس على العرش آخرين ، وأقرضهم الأموال من غنائمه الحربية بفوائد باهظة ، وقبل رشوة كبيرة من ملك مصر الذى دعاه إلى القدوم إليها لإخماد فتنة اندلع لهيبها فى تلك البلاد . ثم عاد فامتنع عن تنفيذ ما اتفق عليه بحجة أنه عمل غير مشروع(٩) ؛ ونشر لواء السلام فى ربوع فلسطين وجعلها ولاية خاضعة لنفوذ رومة ، وأنشأ تسعا وثلاثين مدينة جديدة ، وأقر حكم القانون والنظام والسلام . وقصارى القول أنه كان قد سلك قبل ذلك الوقت مسلك السياسى الحكيم والحاكم القدير وأن مسلكه عاد على البلاد بالمال الوفير . فلما رجع إلى رومة حمل إليها ثروة عظيمة من الضرائب ، والخراج ، والبضائع التى غنمها فى حروبه ، ومن الأموال التى افتدى بها الأرقاء أو بيعوا بها ، فاستطاع بذلك أن يعمر خزانة الدولة بمائتى مليون سسترس ، وأن يضمن لها إيراداً سنوياً قدره ثلثمائة وخمسون مليوناً ، وأن يوزع على جنوده ثلثمائة وأربعة وثمانين مليوناً ، وأن يستبقى لنفسه رغم هذا كله من المال ما ينافس به كراسس فيكون أحد رجلين هما أغنى أغنياء رومة .

وكان خوف مجلس الشيوخ من هذه الأعمال أكثر من سروره منها ، فلما علم أن بمبي قد نزل فى برندزيوم(٦٢) ومعه جيش يدين له بالولاء والإخلاص ، ويستطيع بكلمة من قائده أن يجعله حاكما بأمره على البلاد ، لما عام مجلس الشيوخ ذلك تملكه الرعب . ولكن بمبي كان رجلا كريماً عظيما ، فسرح جنوده ودخل رومة وليس معه إلا أتباعه الأخصاء . ودام الاحتفال بنصره يومين كاملين ، ولكن هذه الفترة على طولها لم تكف لعرض الحفلات التى تصور انتصاراته وتظهر مغانمه .

وكان مجلس الشيوخ حقوداً ضنيناً ، فرفض طلبه القاضى بتوزيع الأرض على جنوده ، ولم يقر الاتفاقات التى عقدها مع الملوك المغلوبين ، وأعاد النظم التى أقامها من قبله لوكلس فى بلاد الشرق والتى أغفلها بمبي . وكانت نتيجة هذه الأعمال أن تمزق اتفاق شيشرون المعروف بحلف الطبقات Concordi ordinum ، وأن ألقى بمبي والرأسماليين فى أحضان الطبقات الدنيا واغتنم قيصر هذه الفرصة السانحة فألف منه ومن بمبي وكراسس الحكومة الثلاثية الأولى(٦٣) وتعهدوا جميعاً أن يقاوموا كل تشريع لا يرضى عنه أى واحد منهم . واتفق بمبي أن يساعد قيصر فى أن ينتخب قنصلا ، كما تعهد قيصر ، إذا ما اختير لهذا المنصب ، أن ينفذ الاقتراحات التى عرضها بمبي ورفضها مجلس الشيوخ .

وكانت الحملة الانتخابية شديدة مريرة استخدمت فيها الرشوة من كلا الجانبين . ولما سمع كاتو زعيم المحافظين أن حزبه يبتاع أصوات الناخبين تحلل من مبادئه الأولى ووافق على هذا العمل بحجة أنه وسيلة إلى غرض نبيل ، واختار العامة قيصر كما اختار الأشرف بيباولس Pibulus .

وما كاد قيصر يتسلم مقاليد منصبه (٥٩) حتى عرض على مجلس الشيوخ

المطالب التى تقدم بها بمپي : وهى توزيع الأرض على عشرين ألفاً من المواطنين الفقراء ومنهم جنود بمپي ، والتصديق على الاتفاقات التى عقدها بمپي فى بلاد الشرق ، وتخفيض المبالغ التى تعهد بها من ولايات آسية بمقدار ثلثها .

ولما عارض المجلس كل مطلب من هذه المطالب بجميع ما لديه من وسائل فعل قيصر ما فعله ابنا جراكس ، فعرضها على الجمعية مباشرة . واستطاع المحافظون أن يقنعوا پيلوس ، كما أقنعوا العرافين بأن يعلنوا أن الحظ غير موات لإجابتها ؛ ولم يأبه قيصر لأقوال العرافين ، وحمل الجمعية على أن تتهم پيلوس بالخيانة ، وقام رجل متحمس من العامة فأفرغ وعاء من البراز على رأس پيلوس .

ثم وافقت الجمعية على مشروعات قيصر ، وكانت تجمع ، كما تجمع مشروعات ابنى جراكس ، بين السياسة الزراعية وخطة مالية ترضى رجال الأعمال . وأعجب بمپي بوفاء قيصر بعهده ، واتخذ يوليا ابنته زوجة رابعة له ، وأصبح الاتفاق بين العامة والطبقة الوسطى رابطة حب وصداقة ؛ وتعهد أعضاء الحكومة الثلاثية للنجاح المتطرف من أتباعهم أن يؤيدوا پيليوس كلوديوس **Publius Clodius** فى أن ينتخب تربيونا فى خريف عام ٥٩ ، وأخذوا يعملون من ذلك الحين للمحافظة على رضاء الناخبين بما يقدمونه لهم من ضروب اللهو والألعاب الكثيرة .

وتقدم قيصر بمشروعه الثانى الخاص بتوزيع الأراضى فى شهر إبريل من ذلك العام نفسه . وكان هذا المشروع يقضى بتوزيع الأراضى التى تملكها الدولة فى كمپانيا على من كان له ثلاثة أبناء من المواطنين الفقراء ؛ وتجاهل قيصر مجلس الشيوخ مرة أخرى ، وأجازت الجمعية المشروع ، وبذلك تمت الموافقة على سياسة ابنى جراكس بعد جهود دامت مائة عام كاملة ؛ ولزم بيبلوس **Bibulus** فى ذلك الوقت بيته واكتفى بأن أخذ يصدر من حين إلى حين تصريحات يقول فيها إن الطوالع غير مواتية للتشريعات الجديدة . أما قيصر فكان يصرف الشئون العامة

من غير ان يستشيره فيها ، وبلغ من إهماله إياه أن كان الفكهون من أهل المدينة يصفون هذا العام بأنه « قنصلية يوليوس وقيصر » . وأراد أن يفرض رقابة الشعب على مجلس الشيوخ ، فأنشأ أول صحيفة إخبارية ، بأن جعل الكتبة يسجلون أعمال الشيوخ وغيرهم ، مضافة إلى الأخبار اليومية ، ثم تعلق هذه « الأعمال اليومية » **Acta Diurna** على جدران السوق العامة ، وتكتب التقارير من هذه « الأعمال اليومية » ، وتحملها إلى جميع أجزاء الإمبراطورية رُسل يخصصون لهذا العمل .

وقبل أن تنتهى فترة هذه القنصلية التاريخية أفلح قيصر فى أن يعين والياً على بلاد الغالة الجنوبية وغالة ناربونة فى الخمس السنين التى تلى سنة القنصلية . وإذ كان القانون يحرم إقامة الجنود فى إيطاليا نفسها فإن قيادة الفيالق المقيمة فى شمال إيطاليا قد جعلت لصاحبها السيطرة العسكرية على شبه الجزيرة بأكملها . وأراد قيصر أن يستوثق من بقاء تشريعاته السابقة ، فعمل على أن ينتخب صديقاه جابنيوس **Gabinius** وبيزو **Piso** قنصلين فى عام ٥٨ ، وتزوج كالپيرنيا **Calpurnia** ابنـــة بيزو ؛ ولكى يضمن استمرار العامة على تأييده بذل جهوده الموفقة لانتخاب كلوديوس تربيونا فى عام ٥٨ . ولم يجز لنفسه أن تتأثر مشروعاته بطلاقه الحديث لزوجته لثالثة بمبيا بسبب ارتيابه فى صلاتها غير المشروعة بكلوديوس .

الفصل الثالث

الأخلاق والسياسة

كان پبليوس كلوديوس پلشر Publiws Claudius Pulcher أى پبليوس كاديوس الجميل فرعاً من دوحة آل كلوديوس . وكان شابا أرستقراطيا باسلا لا يهاب الردى ولا يتورع من الناحية الخلقية عن اقتراف أية موبقة . وقد نزل من مرتبته السامية ، كما نزل منها كاتلين وقيصر ، ليقود العامة فى كفاحهم ضد الأغنياء ، وأراد أن يكون من حقه أن يختار تربيونا فأقنع إحدى الأسر الفقيرة فى أن تتبناه ، وأراد أن يعيد توزيع الثروة التى تجمعت فى أيدى بعض الطبقات فى رومة ، وأن يقضى عل شيشرون — وكان قد استطال فى عرض أخته كلوديا وأخذ يدافع عن حرمة المالكية — فعمل جندياً عادياً تحت إمرة قيصر حتى يستطيع أن يستولى على زمام السلطة . وكان يعجب بخطط قيصر ويعشق زوجته ، واحتال للوصول إليها بأن تزيى بزىّ امرأة ودخل بيت قيصر ، ثم تزيى بزىّ كاهن واشترك فى المراسم الدينية التى يقيمها النساء وحدهن إلى الآلهة الطيبة Bona Dea . ثم افتضح سره ووجهت إليه تهمة الاعتداء على حرمة الإلهة وأسرارها ، وحوكم على هذه التهمة . ولما نودى على قيصر ليشهد عليه قال إنه لا يوجه تهمة ما إلى كلوديوس . فلما سأله المدعى العمومى عن سبب طلاقه بمپيا قال إن سبب هذا الطلاق هو « أن زوجتى يجب أن تكون بعيدة عن الشبهات » .

وكانت هذه إجابة لبقة تسىء إلى ذلك العون السياسى القيم ، ولا تسىء إليه هو ؛ وشهد كثيرون من الشهود بأن كلوديوس كان على اتصال بكلوديا ، وأنه ضاجع أخته ترشيا بعد زواجها من لوكلس : واحتج كلوديوس بأنه كان غائباً عن رومة فى ذلك اليوم الذى يعزى إليه فيه ذلك الاتهام المزعوم الدنىء ، ولكن

شيشرون شهد بأن كلوديوس كان معه فى رومة فى ذلك اليوم نفسه . وظن الشعب أن المسألة كلها مؤامرة من مجلس الشيوخ للقضاء على زعيم من زعمائه ، وأخذ يطالب ببراءته من التهمة الموجهة إليه ؛ ورشا كراسس عدداً من القضاة — بتحريض قيصر كما يقول بعضهم — ليحكموا فى صالح كلوديوس ، واستطاع المتطرفون للمرة الأولى أن يقدموا من المال أكثر مما يقدمه المحافظون ، وبرئ كلوديوس ؛ ولم يدع قيصر هذه الفرصة السانحة تفلت من يده فاستبدل بزوجة من أبناء المحافظين ابنة أحد الشيوخ المناصرين لقضية الشعب ؛

ولم يكد قيصر يعتزل منصبه حتى اقترح بعض المحافظين إلغاء كل التشريعات التى أصدرها إلغاء تاما ؛ ولم يكتم كاتو رأيه فى هذه « القوانين اليوليوسية » ، وطالب بمحوها من سجلات القوانين الرومانية ؛ وتردد مجلس الشيوخ فى الاستجابة إلى هذا التحدى الصريح لقيصر ومن ورائه الجحافل الرومانية ، ولكلوديوس المسيطر على التربيونية ؛ وكان كاتو فى عام ٦٣ قد خطب ود الشعب وحاول ضمه إلى جانب المحافظين بإعادة النظام القاضى بتوزيع الغلال على الأهلين بثمن بخس . وأراد كلوديوس أن يكون أكثر منه استرضاء للعامة فأخذ يوزع الغلال من غير ثمن على كل من يطلبها ، وأقرت الجمعية بناء على طلبه مشروعات قوانين تحرم رفض الإجراءات التشريعية بالاستناد إلى الحجج الدينية وتجعل تأليف الهيئات النقابية من الحقوق المشروعة ، وكان مجلس الشيوخ قد حاول من قبل حلها ؛ وقد أعاد هو تنظيم هذه الهيئات وجعل لها حق الاقتراع مجتمعة ، وكسب بذلك ولاءها وإخلاصها له ، فعينت له من أعضائها حرساً مسلحاً . وإذ كان يخشى أن يحاول كاتو وشيشرون ، بعد أن تنتهى فترة توليه منصبه ، إلغاء ما قام به قيصر من الأعمال فقد أقنع الجمعية بتعيين كاتو مندوباً رومانيا فى قبرص وإصدار قرار يقضى بنفى كل من يتسبب فى قتل أى مواطن رومانى دون أن يحصل على موافقة الجمعية ، كما تتطلب ذلك قوانين الدولة ؛ ورأى شيشرون أنه هو المقصود بهذا القانون ، ففر إلى

بلاد اليونان حيث خذت المدن والشخصيات الكبيرة تتنافس فى تكريمه والاحتفاء بمقدمه . وكان رد الجمعية على هذا القرار أن قررت مصادرة أملاك شيشرون ، وهدم بيته القائم على تل البلاتين **Palatine** .

وكان من حسن حظ شيشرون أن كلوديوس قد غره ما ناله من نصر ، فأخذ يهاجم بمبى وقيصر ، ويحاول الانفراد بزعامة الشعب ؛ وكان جواب بمبى على خطط كلوديوس أن أيد الطلب الذى تقدم به كونتس **Quintus** أخو شيشرون بالسماح لخطيب رومة أن يعود إليها . ودعا مجلس الشيوخ جميع المواطنين الرومان إلى الاجتماع فى عاصمة الدولة ليبدوا رأيهم فى هذا الاقتراح ؛ وجاء كلوديوس بعصابة مسلحة إلى ميدان المريخ لتشرف على عملية الاقتراع ، واستخدم بمبى رجلا فقيراً من الأشراف يدعى أنيوس ميلو **Annius Milo** لتنظيم عصابة أخرى لمناوأتها ، وكانت نتيجة ذلك حدوث شغب واضطراب سفكت فيه الدماء ، فقتل عدد كبير من الناس ولم ينج كونتس نفسه من القتل إلا بمعجزة من المعجزات . على أنه أفلح فيما كان يرمى إليه ، وعاد شيشرون ظافراً إلى رومة بعد نفى دام عدة شهور (٥٧) ، وحيته فى طريقه من برنديزيوم إلى رومة جماهير غفيرة بلغت من الكثرة حداً تظاهر معه شيشرون بالخوف من أن يتهم بأنه قد دبر أمر نفيه ليحظى بهذا التكريم العظيم عند عودته(١١) .

ويلوح أنه قد تعهد بمناصرة بمبى ، ولعله أيضاً قد تعهد بمناصرة قيصر ، نظير سماحهما بعودته . وشاهد ذلك أن قيصر أقرضه أموالا كثيرة لينظم بها شئونه المالية من جديد ، وأبى أن يتقاضى عليها فائدة(١٢) ؛ وظل شيشرون بعد عودته عدة سنين المدافع عن أقطاب الحكومة الثلاثية والناطق بلسانهم مجلس الشيوخ ؛

ولما لاح فى أفق رومة خطر نقص الحبوب مرة أخرى (٥٧) استطاع أن

يحصل لبمبي على تفويض عجيب ، هو أن تكون له السلطة الكاملة مدى ست سنين على كل موارد الطعام فى رومة ، وعلى جميع الدولة وتجارتها الخارجية . واستطاع بمبي مرة أخرى أن يفيد من هذه السلطة أعظم إفادة ، ولكن دستور الجمهورية أصيب مرة أخرى بطعنة نجلاء ، وظل حكم الأفراد يحل محل حكم القانون . وكذلك استطاع شيشرون أن يقنع مجلس الشيوخ بالموافقة على اقتراح عرض عليه بتقديم مبلغ كبير من المال لأداء مرتبات جنود قيصر فى غالة . وفى عام ٥٤ أفلح فى دفاعه عن حكم أولس جابنيوس **Aulus Gabinius** ، حاكم إحدى الولايات وصديق رجال الحكومة الثلاثية ، حتى برئ من تهمة ابتزاز أموال الولايات واستخدام العنف فى الحصول عليها . وفى عام ٥٥ خسر كل ما كسبه من عطف قيصر ومعونته بهجومه العنيف على وال رومانى آخر يدعى كالپرنيوس پيزو **Calpurnius Piso** : ذلك أنه لم ينس قط أن پيزو هذا كان من الذين اقترعوا على نفيه ، ونسى أن ابنة پيزو كانت زوجة قيصر .

ولما عاد كاتو من قبرص عام ٥٧ ق . م بعد أن أعاد تنظيم شئونها على خير وجه شرع المحافظون يلمون شعثهم ويعيدون تنظيم صفوفهم ، وكان كلوديوس قد أضحى وقتئذ عدو بمبي الألد فقبل ما عرضه عليه الأشراف من أن يعيرهم محبة الشعب وعصاباته السفاحة ؛ واتجه الأدب من ذلك الوقت وجهة معادية لقيصر وأخذت قصائد كلفس **Calvus** وكاتلس **Catullus** الهجائية تصوّب كالسهام المسمومة إلى معسكر الحكومة الثلاثية . وكلما توغل قيصر فى بلاد الغاليين ، وتواترت أنباء ما كان يلاقيه فيها من الأخطار الكثيرة ، أخذ الأمل يدب من جديد فى صدور الشخصيات النبيلة ، وقال شيشرون وقتئذ إن « من لم يمت بالسيف مات بغيره » .

وإذا جاز لنا أن نصدق ما قاله قيصر ، فإن عدداً من المحافظين قد أخذوا يأتمرون مع أريوفستس Ariovistus القائد الجرمانى على اغتيال قيصر(١٣) . وسارع دمتيوس Domitius يرشح نفسه للقنصلية ، ويعلن أنه إذا ما فاز بها فسيقترح من فوره على المجلس استدعاء قيصر — أى أن قيصر سيتهم ويحاكم . وتلوّن شيشرون بلون الزمان ، فاقترح أن ينظر مجلس الشيوخ فى يومى ٢٥ ، ٢٦ من شهر مايو فى إلغاء قوانين قيصر الخاصة بالأراضى الزراعية .

الفصل الرابع

فتح بلاد غالة

تسلم قيصر فى عام ٥٨ ق . م مهام منصبه ، منصب حاكم بلاد غالة الجنوبية والنربونية ، أى شمالى إيطاليا وجنوبى فرنسا . وكان أريوفستس قد سار فى عام ٧١ ق . م على رأس خمسة عشر ألفاً من الجرمان إلى بلاد الغالة حين استعانته إحدى قبائلها على قبيلة أخرى . وقدم لها القائد الألمانى المعونة التى طلبتها ولكنه لم يغادر البـــلاد ، بل بقى فيها ليبسط حكمه على جميع القبائل الضاربة فى شمالى غالة الشر . واستنجدت قبيلة الإيدوى Aedui إحدى هذه القبائل بروما لتعينها على الألمان (٦١) . وخوّل مجلس الشيوخ الحاكم الرومانى على بلاد غالة النربونية حق إجابة هذا الطلب ، ولكنه فى الوقت نفسه تقريباً ضم أريوفستس إلى طائفة الحكام الموالين لروما . وكان مائة وعشرون ألفاً من الألمان قد عبروا فى هـــذه الأثناء نهر الرين ، واستقروا فى فلاندرز فشدوا بذلك أزر أريوفستس ، وأخذ يعامل أهل البلاد معاملة الشعوب المغلوبة ، وشرع يمنى نفسه بالاستيلاء على بلاد غالة بأجمعها(١٤) .

وبدأت فى الوقت عينه قبائل الهلفتى Helvetti الضاربة حول جنيفا تهاجر نحو الغرب ، وكانت عدتها نحو ٣٦٨ر٠٠٠ ، وأنذر قيصر بأن هذه القبائل تعتزم اختراق بلاد غالة النربونية فى طريقها إلى جنوبى فرنسا الغربى . ويصف ممسن Mommsen حركات هذه القبائل بقوله : « لقد كانت القبائل الألمانية الضاربة تتحرك فى جميع الأصقاع الممتدة من نهر الرين إلى المحيط الأطلنطى ، وكانت هذه اللحظة شبيهة باللحظة التى انقضت فيها قبائل الألمانى والفرنجة على إمبراطورية القياصرة المتداعية . . . بعد خمسمائة عام من ذلك الوقت »(١٥) وأخذ قيصر يحتال لإنقاذ روما بينما كانت روما نفسها تدبر المؤامرات للقضاء عليه .

وجند قيصر من ماله الخاص . ومن غير أن يرجع فى ذلك إلى مجلس الشيوخ — وكان الدستور يحتم عليه الرجوع إليه — نقول جند ثلاث فرق جديدة كاملة العدة زيادة على الأربع الفرق التى كانت تحت إمرته . ثم أرسل يدعو أريوفستس أن يحضر إليه من فوره ليبحث الموقف معه . ورفض أريوفستس الدعوة كما كان قيصر يتوقع وأقبلت وقتئذ على قيصر وفود كثيرة من القبائل الغالية تتطلب إليه حمايتها ، فأعلن الحرب على أريوفستس وقبائل الهلڤتى ، واتجه بجيوشه نحو الشمال ودارت بينه وبين جحافل الهلڤتى معركة حامية عند ببركتى Bibracte عاصمة الإيدوى ، ومكانها الآن بالقرب من بلدة أوتون Autun الحالية . وانتصرت جيوش قيصر فى هذه المعركة انتصاراً غير حاسم ، أقرب ما يكون إلى الهزيمة ، كما يقول قيصر نفسه ، ونحن مضطرون أن نأخذ عنه هو معظم هذه الأنباء . وعرض الهلڤتى أن يعودوا إلى موطنهم فى سويسرا ، ووافق قيصر على أن يؤمنهم فى عودتهم إليه ، ولكنه اشترط عليهم أن تخضع البلاد التى كانوا يحتلونها إلى حكم رومة . وبعثت بلاد الغالة جميعها وقتئذ تشكر له تخليصها من أعدائها ، وترجوه أن يساعدها على طرد أريوفستس . والتقى قيصر بالألمان عند أستيم Astheim(*) ، ودارت بينه وبينهم معركة انتهت بقتلهم أو أسرهم عن آخرهم تقريباً ، كما يقول هو نفسه (٥٨) . وفر أريوفستس من الميدان ولكنه مات بعد ذلك بقليل .

واعتقد قيصر أن تحرير غالة من أعدائها لا يفترق فى شىء عن فتحها ، فشرع من فوره يعيد تنظيمها على أساس خضوعها لسلطان رومة ، وحجته فى ذلك أن هذا التنظيم هو الوسيلة الوحيدة لحمايتها من الألمان . ولم تقنع هذه الحجة بعض الغاليين فثاروا ، واستعانوا عليه البلجى Belgae وهم قبيلة ألمانية كلتية

(*) على بعد عشرة أميال من شاطىء نهر الرين الغربى وعلى بعد ١٦٠ ميلا جنوبى كولونى .

قوية تسكن شمال غالة بين نهرى السين والرين ؛ والتقى بهم قيصر على شواطئ نهر الآين Aisne وهزمهم ، ثم سار بسرعة خاطفة لم تمكن أعداءه من لم شعثهم ، والتقى بالسويسيون Suissiones ، والأمبيانى Ambiani ، والنرفياى Nervii ، والأدوتيشى Aduatici ؛ وهزم كلا منهم على انفراد ، ونهب بلادهم ، وباع أسراهم لتجار الرقيق الإيطاليين . وأعلن فى ذلك الوقت فتح بلاد الغالة ، وكان فى إعلانه هذا متعجلا بعض الشىء ، وجاراه مجلس الشيوخ فأعلن أن غالة ولاية رومانية ، ورفع العامة فى رومة — ولم يكونوا يقلون فى نزعتهم الاستعمارية عن أى قائد من القواد — عقيرتهم يمجدون بطلهم البعيد . وعاد قيصر فعبر الألب إلى بلاد غالة الجنوبية ، وأخذ يعمل على تنظيم شئونها الإدارية ، وسد ما حدث من النقص فى فيالقه ، ودعا بمبى وكراسس أن يقابلاه فى لوكا ليضع معهما خطة مشتركة للدفاع عن أنفسهم ضد الحركة الرجعية التى يقوم بها المحافظون .

وأرادوا أن يقطعوا الطريق على دمتيوس Domitius فاتفقوا على أن يتقدم بمبى وكراسس للقنصلية فى عام ٥٥ ق . م منافسين له ؛ وعلى أن يعين بمبى والياً على أسپانيا وكراسس على سوريا لمدة خمس سنين (٥٤ — ٥٠) ؛ وأن يظل قيصر والياً على غالة خمس سنين أخرى (٥٣ — ٤٩) ، وعلى أن يسمح له بعد انتهاء هذه الفترة أن يتقدم مرة أخرى للقنصلية .

وأمد قيصر زميليه وصديقيه بما يلزمهما من الأموال التى غنمها من الغاليين لخوض المعركة الانتخابية ؛ وبعث أيضاً بمبالغ طائلة إلى رومة ليوجد ببعضها أعمالا للمتعطلين ، ويدفع منها مكافآت لمؤيديه ، وليرفع ببعضها مكانته فى أعين الشعب بالإقدام على تنفيذ منهاج واسع من المنشآت العامة . وحيا الشيوخ الذين جاءوا ليفحصوا عن غنائمه بالرشا السخية ، فأدى ذلك إلى إخفاق الحركة التى كانت ترمى إلى إلغاء ما أصدره من القوانين . واختير بمبى وكراسس قنصلين بعد أن قدما الرشا السخية المعتادة ، وعاد قيصر يعمل على إقناع الغاليين أن السلام أحلى من الحرية .

وأخذت الأحوال على نهر الرين شمالى كولونى تنذر بالشر المستطير ، عبرت النهر قبيلتان ألمانيتان إلى غالة البلچيكية ، وزحفتا فيها إلى أن وصلتا لييج Liege ، واستعانهما الحزب الوطنى فى غالة على الرومان ، والتقى قيصر بالغزاة عند أكسانتن Xanten (٥٥) ، وصدهم إلى نهر الرين ، وقتل منهم كل من لم يمت فى النهر غرقاً رجالا كانوا أو نساءاً أو أطفالا . ثم أقام مهندسوه فى عشرة أيام جسراً على النهر العظيم ، وكان عرضه وقتئذ ١٤٠٠ قدم ، وعبرت عليه فيالق قيصر ، وحاربت أعداءها فى الأراض الألمانية زمناً يكفى لجعل نهر الرين حداً آمناً للدولة الرومانية ، ثم عاد بعد أسبوعين إلى بلاد غالة .

ولسنا نعرف السبب الذى حدا به إلى غزو بريطانيا فى ذلك الوقت ، لعله قد أغراه بهذا الغزو ما وصل إلى علمه من الشائعات عن كثرة الذهب واللؤلؤ فيها ، أو لعله كان يرغب فى الاستيلاء على ما فى بريطانيا من قصدير وحديد لتصدره رومة إلى البلاد الخارجية ، أو لعله قد أغضبه ما قدمته بريطانيا من عون إلى الغاليين ، وأنه رأى أن يجعل السلطة الرومانية فى غالة آمنة من جميع جهاتها . ومهما يكن السبب فقد سار على رأس قوة صغيرة عبر بها بحر المنش فى أضيق أجزائه ، وهزم البريطانيين الذين لم يكونوا مستعدين لحربه ، وأخذ عن البلاد بعض المعلومات القليلة ، ثم قفل راجعاً (٥٥) . لكنه عبر البحر إليها مرة أخرى فى العام الثانى وهزم البريطانيين بقيادة كسڤلونس Cassivelaunus ، ووصل إلى نهر التاميز ، وانتزع من أهل البلاد وعداً بأن يعطوا الجزية ، ثم رجع إلى غالة .

ولعل سبب رجوعه أنه سمع أن الثورة يكاد يندلع لهيبها مرة أخرى بين القبائل الغالية ، فلما عاد أخضع أولا الإبورون Eburones . ثم زحف على ألمانيا (٥٣) . ولما عاد منها ترك الجزء الأكبر من جيشه فى غالة الشمالية ، ثم ذهب مع من بقى من هذا الجيش ليقضى الشتاء فى شمالى إيطاليا ، وكان يرجو أن يخصص بضعة شهور لإصلاح أسواره فى رومة ، ولكنه سمع فى أوائل عام ٥٢ أن

ڤرسنجتركس Vercingetorix أقدر الزعماء الغاليين قد حشد كل القبائل الغالية تقريباً فى حرب تبغى بها أن تستعيد استقلالها ؛ وبذلك أصبح مركز قيصر شديد الحرج لأن الجزء الأكبر من جيشه كان فى شمال إيطاليا ، والأقاليم الواقعة بينه وبين هذا الجيش فى أيدى الثوار . ولكنه سار على رأس قوة صغيرة فوق ثلوج جبال السڤن Cevennes وهاجم مدينة أوڤرنى Auvergne . ولما جاء ڤرسنجتركس بقوته ليدافع عنها ولى قيصر دسمس بروتس Decimus Brutus قيادة جنوده الذين كانوا يهاجمونها ، وسار هو متخفياً ومعه عدد كبير من الفرسان مخترقاً بلاد غالة من الجنوب إلى الشمال ، وانضم إلى جيشه الرئيسى ، وقاده من فوره إلى القتال ، وحاصر أڤريكوم Avaricum (بورج Bourgas) وسنابوم Cenabum (أورليان Orleans) ، واستولى عليهما ، وأعمل فيهما السلب والنهب ، وقتل أهلهما ، وملأ بكنوزهما خزائنه الخاوية . ثم زحف بجيشه على جرجڤيا Gergovia حيث قاومه الغاليون مقاومة عنيفة اضطرته إلى الانسحاب وفى ذلك الوقت تخلى عنه الأدويون الذين أنجاهم قبل من الألمان ، والذين بقوا حتى ذلك الوقت أنصاراً له وحلفاء ، ثم استولوا على قواعده ومخازن ميرته فى سواسون Soissons ، وشرعوا يستعدون لرده إلى بلاد غالة النربونية .

وكان هذا هو الوقت الذى ساءت فيه أحوال قيصر كما لم تسؤ من قبل ولا من بعد ، ومرت به بعض الأيام فقد فيها كل أمل فى النجاة . وفى هذا الوقت العصيب ضرب الحصار على أليزيا Alesia (أليز سنت رين Alise Ste-Reine) ، وجازف بكل شىء فى هذا الحصار لأن ڤرسنجتركس جمع فيها ثلاثين ألفاً من جنوده . وما كاد قيصر يوزع مثل هذا العدد من الجند حول المدينة حتى وصلته الأنباء بأن ٢٥٠ر٠٠٠ من الغاليين بدءوا يزحفون نحو المدينة من الشمال . فما كان منه إلا أن أمر جنوده بأن يقيموا حول المدينة سورين دائريين من التراب ، أحدهما من أمامهم والآخر من خلفهم ، وانقضت جيوش ڤرسنجتركس وحلفائه

على هذين السورين وعلى الجيوش الرومانية الباسلة وهاجمتها المرة بعد المرة ، ولكنها باءت فى كل هجماتها بالخسران . وواصل الجيش المنقذ هجماته على هذا النحو أسبوعاً كاملا ، ثم تبدد شمله لاختلال نظامه ونقص طعامه وعتاده ، واستحال هذا الجيش فلولاً لا حول لها ولا طول فى الساعة التى نفذت فيها موارد الرومان ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى بعثت المدينة الجائعة فرسنجتركس نفسه بناء على طلبه إلى قيصر أسير حرب ، ثم استسلمت للرومان ووضعت نفسها تحت رحمتهم (٥٢) . وعفا قيصر عن المدينة فلم يمسسها بسوء ، ولكنه أسلم جنودها لرجال جيشه ليكونوا رقيقاً لهم . وسيق فرسنجتركس مكبلا بالأغلال إلى رومة حيث سار فيما بعد يزين موكب نصر قيصر ، وجوزى بالقتل على حبه للحرية .

وقرر حصار إليزيا مصير بلاد غالة ، كما قرر خصائص الحضارة الفرنسية . ذلك أنه أضاف إلى الإمبراطورية الرومانية بلاداً تبلغ مساحتها ضعفى مساحة إيطاليا وفتح خزائن خمسة ملايين من الناس وأسواقهم إلى التجارة الرومانية . يضاف إلى هذا أن ذلك الحصار أنجى إيطاليا وعالم البحر الأبيض المتوسط مدة أربعة قرون من غارات البرابرة ، وانتشل قيصر مرة أخرى من حافة هاوية الخراب إلى ذروة المجد والثروة والسلطان . وظلت بلاد غالة عاماً آخر تثور ثورات متفرقة عقيمة ، أخمدها قيصر بقسوة لم تألفها منه ، ثم خضعت لرومة وأسلمت لها أمورها . وما كاد يتم له النصر حتى عاد قيصر كما كان الفاتح الشهم الكريم ، فعامل القبائل المغلوبة معاملة لينة كان من آثارها أن هذه القبائل لم تتحرك قط لتخلع عن كاهلها نير رومة حين شبت فيها نار الحرب الأهلية ، ولم يكن فى مقدورها ولا فى مقدور قيصر أن يؤدبا هـذه القبائل . وظلت بلاد غالة بعـدئذ ثلثمائة عام ولاية رومانية يعمها الرخاء فى ظلال السلم الرومانية ، وتعلمت فى خلالها اللغة اللاتينية ، وأدخلت عليها كثيراً من التغيير حتى أصبحت الأداة التى نقلت بها ثقافة العهود الغابرة إلى

شمالى أوربا . ولا جدال فى أن قيصر ومعاصريه لم يكونوا يدركون ما سوف تتمخض عنه انتصاراته الدموية من نتائج بعيدة المدى ، فقد كان أقصى ما يظنه أنه أنقذ إيطاليا ، وضم لها ولاية جديدة ؛ وأنشأ لها جيشاً قوياً ، لكنه لم يدر بخلده أنه منشئ الحضارة الفرنسية .

ودهشت رومة إذ وجدت أن قيصر إدارى قادر لا يعتريه ملل ، وقائد محنك واسع الحيلة ، بعد أن لم تكن تعرف عنه أكثر من أنه رجل متلاف رقيع ، وسياسى ، ومصلح . ثم أدركت فى الوقت عينه أنه مؤرخ عظيم . ذلك أنه وهو فى ميادين القتال تقض مضجعه الهجمات المتوالية عليه من رومة ، كان يسجل فتوحه فى غالة ، ويدافع عن هذه الفتوح فى شروحه Commentaries ، وقد سما بها إيجازها العسكرى — إذا جاز أن نصفها بهذا الوصف — وبساطتها الفنية من منزلة النشرات الحزبية إلى أسمى مكان فى الأدب اللاتينى . وحتى شيشرون نفسه ، بعد أن تقلب مرة أخرى فى مبادئه السياسية ، أخذ يتغنى بمدح قيصر ويستعجل فى ذلك الوقت ما حكم به عليه التاريخ فيما بعد إذ قال :

ليست معاقل الألب المنيعة ، ولا مياه الرين الفياضة الصاخبة ، هى الدرع الحقيقى الذى صد عنا غارات الغاليين والقبائل الألمانية الهمجية ، بل الذى صدها فى اعتقادى هو قيادة قيصر وقوة ساعديه . ولو أن الجبال دكت وسويت بالسهول ، والأنهار جفت ، لاستطعنا أن نحتفظ ببلادنا حصينة منيعة بفضل ما نال قيصر من نصر مؤزر وما قام به من أعمال مجيدة . ألا ما أعظم فضله علينا(١٦) .

ويجب أن نضيف إلى هذا ما أثنى به عليه ألمانى عظيم إذ قال :

إذا كان ثمة جسر يربط ماضى هلاس ورومة المجيد بتاريخ أوربا

الحديث ، الذي هو أعظم منه مجداً وأسمى قدراً ، وإذا كان غرب أوربا رومانياً ، وإذا كانت أوربا الألمانية قد صبغت بالصبغة اليونانية والرومانية القديمة . . . فما ذلك كله إلا من عمل قيصر ؛ وإذا كان ما أوجده سلفه العظيم(*) في بلاد الشرق قد كادت تمحو معالمه كلها زعازع العصور الوسطى ، فإن الصرح الذي شاده قيصر ظل قائماً آلاف السنين التي تبدلت فيها الأديان وتغيرت الدولة(١٧)

(*) يريد الإسكندر الأكبر . (المترجم)

الفصل الخامس

فساد الدمقراطية

انحطت السياسة الرومانية فى خلال الخمس السنين الثانية من ولاية قيصر على غالة إلى الدرك الأسفل من الفساد والعنف ، فقد كان القنصلان بمبى وكراسس يسيران فى حكمهما على خطة شراء أصوات الناخبين ، وإرهاب المخلفين ، والالتجاء إلى القتل فى بعض الأحيان(١٨) . ولما انقضت مدة ولايتهما جند كراسس جيشاً كبيراً وأبحر به إلى سوريا ، ثم عبر نهر الفرات ، والتقى بالپارثيين عنـــد كرهية Carrhae ، ودارت الدائرة عليه لتفوق فرسان الپارثيين ، وقُتل ولده فى المعركة .

وبينا كان كراسس يرتد بقواته بنظام ، دعاه قائد الپارثيين إلى الاجتماع به ، فأجاب الدعوة ، ولكن القائد الپارثى غدر به وقتله ، وأرسل رأسه ليمثل به دور بنثيوس Bentheus فى احتفال فى بلاط ملك الپارثيين ، مثلث فيه مسرحية باخية Bacchae ليوريپديز Euripidis . وأصبح جيشه بغير قيادة ، وكان قد مل القتال ، فانحلت عراه وتبدد شمله (٥٣) .

وكان بمبى فى هذه الأثناء قد جمع له جيشاً ، ولعله كان يبغى به إتمام فتح أسبانيا ، ولو أن قيصر نجح فى خططه لفتح بمبى أسبانيا القاصية ، ولأخضع كراسس أرمينية وپارثيا ، ولبسطت رومة سلطانها على هذه البلاد جميعها فى الوقت الذى كان فيه قيصر يمد حدود الإمبراطورية الرومانية إلى نهرى التاميز والرين . ولكن بمبى أبى فيالقه فى إيطاليا بدل أن يقودها إلى أسبانيا ، إلا فيلقاً واحداً أعاره قيصر إبان الأزمة التى نجمت عن ثورة الغاليين . وحدث فى عام ٥٤ أن انفصمت العروة الوثقى التى كانت تربطه بقيصر على أثر وفاة زوجته يوليا فى أثناء

الوضع ، وعرض عليه قيصر أن يزوجه أكتافيا حفيدة أخيه وأقرب قريباته في ذلك الوقت ، وطلب أن يتزوج هو بابنة بمپي ، ولكنه رفض كلا العرضين . وأخلت النكبة التي حلت بكراسس وجيشه في العام التالي من الميدان قوة أخرى كانت تعمل على إيجاد التوازن فيه . ذلك أن نجاح كراسس كان من شأنه أن يحول دون طغيان قيصر أو بمپي . وعقد بمپي من ذلك الوقت حلفاً صريحاً مع المحافظين ، ولم يبق أمامه لنجاح خططه التي كان يبغي بها الحصول على السلطة العليا بالطرق المشروعة في الظاهر إلا عقبة واحدة ، هي مطامع قيصر وجيشه . وكان يعرف أن قيادة قيصر للجيش تنتهي في عام ٤٩ ، فاستصدر مراسيم تقضي بمد أجل قيادته هو إلى آخر عام ٤٦ ، وطلب إلى جميع الإيطاليين القادرين على حمل السلاح أن يحلفوا يمين الولاء العسكري له هو شخصياً ، وكان يعتقد بعد هذا أن الزمن كفيل بأن يجعله سيد رومة[١٩] .

وبينا كان القائدان اللذان يبغي كلاهما أن يكون الحاكم بأمره في رومة يضعان خططهما على هذا النحو كانت الديمقراطية تحتضر في عاصمة البلاد ، فكانت الأحكام القضائية ، ومناصب الدولة ، وعروش الملوك الخاضعين لسلطانها ، تباع إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان . من ذلك أن القسم الأول من المقترعين في الجمعية قد استولى في عام ٥٣ على عشرة ملايين سسترس ثمناً لأصوات أفراده[٢٠] . ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن الالتجاء إلى الاغتيال[٢١] أو كشف الستار عن ماضي الناس ، والتهديد بالكشف عن فضائحهم ، فلم يروا أمامهم سبيلا غير الإذعان . وفشا الإجرام في المدينة كما انتشرت السرقات في الأقاليم ، ولم يكن في هذه ولا في تلك قوة من الشرطة تطمئن الناس على أنفسهم أو أموالهم ، فكان الأغنياء يستأجرون عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم في الجمعية . واستهوت رائحة المال أو هبات الحبوب أحط الطبقات في إيطاليا فهرعت إلى رومة ، وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، فكان كل من يقبل

الاقتراع كما يطلب إليه يؤذن له بدخولها سواء كان من مواطنى رومة أو من غير مواطنيها ؛ وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يكون من بين من أعطوا أصواتهم إلا أقلية صغيرة هى التى لها حق الاقتراع . وكثيراً ما كان الخطباء يحصلون على حق الخطابة فى الجمعية بالهجوم على المنصة والاستيلاء عليها قوة واقتداراً . وأضحت العصابة التى ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هى التى تشرع للدولة ، كما كان الذين يقترعون على غير هواها يضربون حتى يكاد يقضى عليهم ، ثم تشعل النار بعد الضرب فى بيوتهم . وقد كتب شيشرون بعد جلسة من هذه الجلسات يقول :

« لقد امتلأ التيبر بجثث المواطنين كما سدّت بها البالوعات العامة ، واضطر الأرقاء إلى امتصاص الدم بالإسفنج من السوق العامة »(٢٢) .

وكان كلوديوس وميلو أعظم الخبراء الممتازين فى هذه المهزلة البرلمانية ؛ فقد كانا ينظمان عصابات من أحط الطبقات ليصلوا بها إلى أغراضهم السياسية ، وقلما كان يوم واحد يمر دون أن توضع قوة هذه العصابات موضع الاختبار ؛ من ذلك أن كلوديوس هاجم شيشرون فى أحد شوارع المدينة فى يوم من الأيام ، وحرق أجراؤه بيت ميلو فى يوم ثان ، ثم قبضت عصابات ميلو على كلوديوس نفسه فى يوم آخر وقتلته (٥٢) ؛ غير أن صعاليك المدينة الذين لم يكونوا يجهلون ما يدبره من المؤامرات رفعوه إلى مقام الشهداء ، واحتفلوا بجنازته احتفالا عظيما ، وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ ، وحرقوا البناء فوقها كأنه كومة الحطب التى تحرق عليها جثث الموتى .

وجاء بمبى بجنوده ففرقوا الغوغاء ، ثم طلب إلى المجلس جزاء له على عمله هذا أن يعيّنه « قنصلا بغير زميل » ، وهى عبارة نصح بها كاتو وقال إنها أخف على السمع من لفظ دكتاتور ؛ ثم عرض بمبى على الجمعية ، بعد أن أرهبها بجنده ، عدة اقتراحات يبغى بها القضاء على الرشوة والفساد السياسيين المنتشرين فى البلاد ، كما عرض عليها

اقتراحاً بإلغاء حق المرشح لمنصب القنصل أن يفعل هذا وهو غائب عن رومة ، (وكانت الجمعية قد منحت قيصر هذا الحق بناء على مشروع قانون عرضه عليها بمي نفسه فى عام ٥٥) : وأخذ يشرف بنفسه على قوة الدولة العسكرية ، وعلى أعمال المحاكم ؛ ولم يؤخذ عليه فى هذا الإشراف شيء من الهوى أو المحاباة . وحوكم ميلو على جريمة قتل كلوديوس وأدين على الرغم من دفاع شيشرون عنه(*) ثم هرب إلى مرسيليا ؛ وغادر شيشرون رومة ليحكم قليقية (٥١) ، وحكمها بكفاية ونزاهة أدهشتا أصدقاءه وأغضبتهم عليه . ثم استسلمت عناصر الثروة والنظام كلها فى عاصمة البلاد إلى دكتاتورية بمي ، أما الطبقات الفقيرة فظلت صابرة تتلهف على عودة قيصر

(*) وقد أدخل كثير من التعديل على نص الخطبة الذى وصل إلينا ، حتى بلغ الاختلاف بينه وبين النص الأصلى — وكانت عباراته قد اضطربت بسبب ما ساد من الهرج بفعل أعدائه حين إلقائها — مبلغاً حمل ميلو حين قرأها على أن يصيح قائلا : « أى شيشرون ! لو أنك نطقت بما كتبت لما كنت الآن أطعم السمك الجيد فى مرسينية »(٢٣) .

الفصل السادس

الحرب الأهليـــة

دامت الفتن والثورات فى الدولة الرومانية مائة عام ، حطمت فى خلالها كيان الطبقة الأرستقراطية الأنانية القليلة العدد التى كانت تتولى شئون الحكم فى البلاد ، ولكنها لم تحل حكومة أخرى محلها . فأما الجمعية فقد أفسدها التعطل والرشوة والخبز ومجالدة الوحوش ، فأحالتها إلى جماعة من الغوغاء الجهلة تسيطر عليهم أهواؤهم وشهواتهم ، فكانت بذلك عاجزة أشد العجز عن حكم نفسها بله حكم إمبراطورية واسعة الرقعة . وانحطت الدمقراطية حتى أضحت وكأنها هى المعنية بقول أفلاطون : « صارت الحرية إباحية ، وأخذت الفوضى تتوسل أن يوضع حد للحرية »(٢٤) . ولم يختلف قيصر مع بمبى فى أن الجمهورية قد ماتت ، وأنها أصبحت على حد قوله : اسماً على غير مسمى لا جسم لها ولا صورة » .(٢٥) ولم يكن ثمة مفر من الدكتاتورية ، ولكنه كان يريد أن يضع أزمة الأمور فى أيدى قيادة تعمل لتقدمها ورقيها ، قيادة غير جامدة لا تبقى البـــلاد على حالها التى تردت فيها ، بل تبذل جهودها لتخفيف ما يتغلغل فيها من مفاسد ومظالم وفاقة أفسدت الدمقراطية وهوت بها إلى الحضيض . وكان قيصر وقتئذ فى الرابعة والخمسين من عمره ، وما من شك فى أنه قد أوهنته حروبه الطويلة فى غالة ، وأنه لم يكن يحب أن يتورط فى محاربة مواطنيه وأصدقائه السابقين ، ولكنه كان على علم بالمؤامرات التى تحاك له ، والفخاخ التى تنصب لاقتناصه ، وكان يؤلمه أشد الألم أن تكون هذه المؤامرات والفخاخ هى الجزاء الذى يجزى به من أبحى إيطاليا من الدمار والخراب . وكانت مدة حكمه فى غالة تنتهى فى اليوم الأول من شهر مارس سنة ٤٩ ق . م ، ولم يكن فى وسعه أن يتقدم للقنصلية إلا فى

خريف ذلك العام ، وفى الفترة الواقعة بين الزمنين يفقد الحصانة التى يسبغها عليه منصبه ، ولا يستطيع دخول رومة دون أن يعرض نفسه للاتهام بأنه خارج على القانون ، وهو السلاح المألوف الذى كانت تلجأ إليه الأحزاب المختلفة فى رومة فى نزاعها على السلطة . وكان ماركس مارسلس Marcus Marcellus قد عرض قبل ذلك الوقت على مجلس الشيوخ أن يعزل قيصر من الولاية قبل انتهاء مدتها ، ومعنى هذا العزل هو البقاء خارج البلاد أو المحاكمة ، وكان التربيونان قد أنجياه من هذه المكيدة باستخدام ما لهما من حق الاعتراض ، ولكن مجلس الشيوخ كان بلا ريب راضيا عن هذا الاقتراح ، وقال كاتو بصريح العبارة إنه يرجو أن توجه التهمة إلى قيصر ، وأن يحاكم وينقى من إبطاليا .

أما قيصر نفسه فلم يدخر جهداً فى العمل على إزالة أسباب النزاع بينه وبين خصومه . فلما أن طلب مجلس الشيوخ بإيعاز بمبى أن يتخلى له كلا القائدين عن فيلق يرسله لقتال پارثيا ، أجابابه قيصر من فوره إلى طلبه ، وإن لم تكن القوة التى لديه كبيرة . ولما طلب بمبى إلى قيصر أن يعيد إليه الفيلق الذى أرسله له قبل عام من ذلك الوقت ، بادر أيضاً بإرساله إليه ، وإن كان أصدقاؤه قد أبلغوه أن الفيلقين لم يرسلا إلى پارثيا بل بقيا فى كاپوا . وطلب قيصر على لسان مؤيديه فى مجلس الشيوخ أن يعاد العمل بقرار الجمعية السابق الذى كان يجيز له أن يرشح نفسه لمنصب القنصلية وهو غائب عن رومة ، ولكن المجلس رفض الاقتراح وطلب إلى قيصر أن يسرح جنوده . وأحس هو أن ليس له سند يحميه إلا فيالقه ، ولعله لم يكن يعمل لكسب ولائهم له إلا ليقفوا إلى جانبه فى مثل هذه الأزمة . غير أنه فى ذلك الوقت عرض على مجلس الشيوخ أن يعتزل هو وبمبى منصبيهما — وبدا هذا العرض معقولا لا غبار عليه فى نظر الشعب ، حتى أنه كلل جبين رسوله بالأزهار ووافق المجلس على هذه الخطة بأغلبية ٣٧٠ ضد ٢٢ ، ولكن بمبى أبى أن يخضع لهذا القرار ، حتى إذا أشرف عام ٥٠ على الانتهاء ولم يبق منه إلا بضعة

أيام ، أعلن أن قيصر عدو الشعب إذ لم يتخل عن القيادة قبل اليوم الأول من شهر يولية . وفى أول عام ٤٩ قرأ كوريو Curio على المجلس رسالة من قيصر يعلن فيها استعداده لتسريح جيشه كله عدا فيلقين اثنين إذا سمح له بأن يظل والياً على غالة حتى عام ٤٨ ، ولكنه أفسد هذا العرض بأن أضاف إليه أنه يرى فى رفضه إعلاناً للحرب عليه . ودافع شيشرون عن هذا الاقتراح ، ووافق عليه بمبى ، ولكن القنصل لنتولس Lentulus تدخل فى الأمر وأخرج كوريو Curio وأنطونيوس نصيرى قيصر من المجلس(٢٦) ، وبعد نقاش طويل أصدر المجلس على كره منه وبإلحاح لنتولس وكاتو ومارسلس إلى بمبى أمراً وسلطة « يعمل بهما على ألا تصاب للدولة بسوء » . وتلك عبارة رومانية معناها الدكتاتورية والحكم العسكرى .

وتباطأ قيصر وتردد أكثر مما كانت عادته . فقد كان مجلس الشيوخ من الوجهة القانونية على حق فيما فعل ، ولم يكن من حقه هو أن يعرض الشروط التى يعتزل بمقتضاها منصبه وقيادته . وكان يعرف أن الحرب الأهلية قد تثير الفتنة فى غالة وتخرب إيطاليا بأجمعها ، ولكنه كان يعلم أيضاً أن استسلامه معناه إسلام الإمبراطورية للعجز وللرجعية ، وترامى إليه فى أثناء تفكيره أن صديقاً من أقرب الأصدقاء إليه ومن أقدر مؤيديه وهو تيتس لبيلس Titus Labienus قد انشق عليه وانضم إلى بمبى ، فما كان منه إلا أن استدعى الفيلق الثالث عشر ، أكثر فيالقه ولاء له وأحبها إلى قلبه ، وعرض الأمر كله على رجاله . وكانت أول كلمة نطق بها أمامهم وهى « زملائى الجنود » Commilitones كافية لكسب قلوبهم ، ولم يكونوا ينكرون عليه حقه فى استعمال هذا اللفظ لأنهم رأوه من قبل يشترك معهم فى الصعاب ويتعرض معهم للأخطار ، وكثيراً ما شكوا هم أنفسهم من أنه يجازف بحياته ويعرضها للخطر فوق ما يجب . وكان هو على الدوام يخاطبهم بهذا اللفظ بدل اللفظ المقتضب الجاف الذي كان ينطق به من هم أقل منه مجاملة

من القواد . وكان معظم رجاله من بلاد الغالة الجنوبية ، وهى البلاد التى جعل لأهلها حق المواطنين الرومان ، وكانوا يعرفون أن مجلس الشيوخ قد أبى أن يعترف لهم بهذه المنحة ، وأن أحد أعضائه قد جلد رجلا من أهلها ليدل بذلك على احتقاره لعمل قيصر ، على الرغم من أن جلد المواطن الرومانى كان عملا لا يجيزه القانون . وكان قيصر قد علمهم فى أثناء حروبهم الطويلة أن يحترموه — بل أن يحبوه على طريقتهم الخشنة الصامتة فى الحب . وكان قاسياً على الجبناء ومن لا يرعون النظام ، ولكنه كان سمحاً ليناً لا يقسو عليهم جزاء لهم على أغلاطهم التى تدفعهم إليها طبيعتهم البشرية ، وكان يتغاضى عن أخطائهم الجنسية ويجنبهم ما لا ضرورة له من الأخطار ، وكثيراً ما أنجاهم من الهلاك بحنكته وحسن قيادته . هذا إلى أنه ضاعف أجورهم ، ووزع عليهم كثيراً من غنائمه الحربية ، ولما جاءوا إليه شرح لهم ما عرضه على مجلس الشيوخ ، وكيف قابل المجلس هذه العروض ، وذكر لهم أن الأرستقراطية المتعطلة الفاسدة لا تستطيع أن توفر لرومة النظام والعدالة والرخاء ، وسألهم هل يتبعوه ؟ فلم يعارض واحد منهم ، ولما قال لهم إنه ليس لديه مال يؤدى منه أجورهم جاءوا إلى خزائنه بكل ما كان مدخراً لديهم .

وفى اليوم العاشر من شهر يناير من عام ٤٩ ق . عبر بأحد فيالقه الروبيكون وهو مجرى صغير بالقرب من أريمينوم **Ariminum** كان هو الحد الجنوبى لغالة الجنوبية ، ويقال إنه قد نطق فى ذلك الوقت بقوله المأثور : « لقد قضى الأمر » **Iacta est alea**[٢٧] ، وخيل إلى الناس أن هذا العمل هو الحمق بعينه لأن الفيالق الخمسة الباقية من جيشه كانت لا تزال بعيدة عنه فى بلاد غالة لا تستطيع اللحاق به إلا بعد عدة أسابيع ، على حين أن بمبى كان لديه عشرة فيالق ، أى ستون ألف جندى ، وكان من حقه أن يجند ما يشاء من الفيالق الأخرى ، ولديه من المال ما يكفى لتسليحهم وإطعامهم . وانضم بعدئذ إلى قيصر الفيلق الثانى عشر من فيالقه عند پسينوم **Picenum** ، والفيلق الثامن عند كورفنيوم **Corfinium** ، ثم

أنشأ ثلاثة فيالق جديدة من أسرى الحرب ومن المتطوعين ومن أهـل البلاد ؛ ولم يكن يلقى صعوبة فى جمع الجنود لأن إيطاليا لم تكن قد نسيت بعد ما قاسته فى الحرب الاجتماعية (٨٨) ، كانت ترى فى قيصر البطل المدافع عن حقوق الإيطاليين ؛ فكانت مدائنها تفتح أبوابها لاستقباله واحدة بعد أخرى ، وكثيراً ما خرج سكان بعض هذه المدائن على بكرة أبيهم ليحيوه ويرحبوا به(٢٨) ؛ وقد كتب شيشرون فى ذلك يقول : « إن المدن تحييه كأنه إله معبود(٢٩) » وقاومت كورفنيوم مقاومة قصيرة الأجل ، ثم استسلمت له ولم يسمح لجنوده أن ينهبوها ، وأطلق سراح من قبض عليهم من الضباط ، وبعث إلى معسكر بمبى بكل ما تركه لبيينس Labienus من المال والعتاد . ولم يشأ أن يصادر ضياع من وقع فى يده من الأعداء وإن كان فى ذلك الوقت معدماً فقيراً لا يكاد يملك شيئاً من المال — وكانت هذه خطة حميدة يمتاز بها قيصر ، كان من أثرها أن وقفت كثرة الطبقة الوسطى من الأهلين على الحياد ؛ وأعلن فى ذلك الوقت أنه سيعد كل المحايدين أصدقاء له وأنصاراً . وكان فى كل خطوة يخطوها إلى الأمام يعرض عروضاً للصلح على أعدائه ؛ من ذلك أنه أرسل إلى لنتولس Lentulus رسالة يرجوه فيها أن يستخدم ما يخلعه عليه منصب القنصل من نفوذ ليعيد السلم إلى البلاد ، وعرض فى رسالة كتبها إلى شيشرون استعداده لاعتزال الحياة العامة وترك المجال إلى بمبى على شرط أن يسمح له بأن يعيش آمناً على حياته(٣٠) ؛ وبذل شيشرون جهده فى التوفيق بين القائدين ، ولكن منطقه لم يجده نفعاً أمام تعسف الثورة ودعاواها المتعارضة(٣١) .

ولما تقدم قيصر نحو العاصمة انسحب بمبى هو وجنوده منها وإن كانت جيوشه وقتئذ لا تزال أكثر من جيوش قيصر عدداً . وانسحب من ورائه فى غير نظام عدد كبير من الأشراف تاركين وراءهم زوجاتهم وأبناءهم تحت رحمة قيصر . ورفض بمبى عروض الصلح جميعها ، وأعلن أنه سيعد كل من

لم يغادر رومة وينضم إلى معسكره عدوًّا له ؛ ولكن الكثرة العظمى من أعضاء مجلس الشيوخ بقيت فى رومة ، وتذبذب شيشرون بين الفريقين ، وكان يحتقر تردد بمبي وخور عزيمته ، فقسم وقته بين ضياعه فى الريف وسار بمبي إلى برنديزيوم وعبر بجنوده البحر الأدرياوى . وكان يعرف أن جيشه يعوزه النظام ، وأنه فى حاجة إلى كثير من التدريب قبل أن يستطيع الصمود فى وجه فيالق قيصر ، وكان يرجو أن يستطيع الأسطول الرومانى الذى يسيطر هو عليه أن يجوّع إيطاليا فى هذه الأثناء ويدفعها إلى إبادة عدوه .

ودخل قيصر رومة فى اليوم السادس عشر من مارس دون أن يلقى فى دخولها أية مقاومة ، دخلها وهو مجرد من السلاح لأنه ترك جنوده فى البلدان المجاورة لها ؛ وأعلن حين دخولها العفو العام عن جميع أهلها ، وأعاد إليها الإدارة البلدية والنظام الاجتماعى ؛ ودعا التربيونان مجلس الشيوخ إلى الانعقاد وطلب إليه قيصر أن يعيّنه حاكماً بأمره (دكتاتوراً) ، ولكن المجلس لم يجبه إلى طلبه ، ثم عرض على المجلس أن يبعث رسلا إلى بمبي ليفاوضوه فى عقد الصلح فرفض ذلك أيضاً . فطلب المال من الخزانة العامة فوقف فى سبيله التربيون لوسيوس متلس **Lucius Metellus** فلما قال قيصر إن النطق بعبارات التهديد أصعب عليه من تنفيذها خضع متلس ؛ واستطاع من ذلك الوقت أن يكون حر التصرف فى أموال الدولة ، ولكنه كان نزيهاً كل النزاهة ، فأودع فى الخزانة العامة كل ما غنمه من الأموال فى حروبه الأخيرة . ولما تم له ذلك عاد إلى جنوده واستعد لملاقاة الجيوش الثلاثة التى كان بمبي وأنصاره يعدونها فى بلاد اليونان وأفريقية وأسپانيا ، وأراد أن يضمن لإيطاليا كفايتها من الحبوب التى تعتمد عليها فى حياتها ، فأرسل كوريو **Curio** المتهور العنيف ومعه فيلقان من جيشه ليستولى على صقلية ، فلما نزل فى الجزيرة سلمها إليه كاتو وانسحب منها إلى أفريقية ، فاندفع وراءه كوريو اندفاع رجيولوس **Regulus** ، واشتبك معه فى معركة

لم يكن قد كمل استعداده هو لها ، فهزم وقتل فى ميدان القتال . ولم يندم عند وفاته على ما أصابه بل ندم أشد الندم على ما ألحقه من الأذى بقيصر .

وكان قيصر فى هذه الأثناء قد سار على رأس جيش إلى أسپانيا ، وكان غرضه من هذا الزحف أن يضمن عودتها إلى تصدير الحبوب إلى إيطاليا ، وأن يحول بينها وبين الهجوم على مؤخرته حين يزحف لملاقاة پمپى ، وارتكب فى إيطاليا كما ارتكب فى غالة عدة أغلاط عسكرية فنية(٣٢) ، كانت عاقبتها أن تعرض جيشه — الذى كان أقل من جيش أعدائه عدداً — للهزيمة وللهلاك جوعاً ، ولكنه أنجاه وأنجى نفسه ، كمألوف عادته ، بسرعة خاطره وشجاعته(٣٣) ، فقد حوّل مجرى أحد الأنهار واستحال الحصار الذى كان مضروباً عليه حصاراً على أعدائه ، وظل صابراً زمناً طويلا حتى يستسلم له الجيش المحاصر وإن كان جنوده قد ملوا الانتظار وأخذوا يطالبون بالهجوم على العدو . ثم استسلم أنصار پمپى آخر الأمر وخضعت أسبانيا كلها إلى قيصر (أغسطس سنة ٤٩) . وغاد بعدئذ إلى إيطاليا براً ، ولكنه وجد الطريق مغلقاً فى وجهه عند مرسيليا ، وقد وقف أمامه جيش يقوده لوسيوس دمتيوس Lucius Domitius وهو القائد الذى أسره فى كورفنيوم ثم أطلق سراحه . واستولى قيصر على المدينة بعد أن حاصرها حصاراً شديداً ، ثم أعاد تنظيم الإدارة فى غالة ، ولم يحلّ شهر ديسمبر حتى عاد ظافراً إلى رومة :

وقوت هذه الحملات مركزه السياسى ، كما طمأنت البطون المتخوفة فى العاصمة على كفايتها من الطعام ، فلم يمانع مجلس الشيوخ وقتئذ فى أن يعينه دكتاتوراً . ولكن قيصر تخلى عن هذا اللقب بعد أن اختير أحد القنصلين فى عام ٤٨ ق . م : ولما وجد أزمة النقد مستحكمة فى إيطاليا ، لأن اختزان النقود قد سبب انخفاض الأثمان ، وأبى المدينون أن يؤدوا بالنقود الغالية ما استدانوه بالنقود الرخيصة — لما وجد هذا أصدر قراراً

يبيح أداء الديون سلعاً يقدر أثمانها محكوم من قبل الحكومة كما كانت تقدر قبل الحرب . وكان يرى أن هذه « خير وسيلة للاحتفاظ بشرف المدينين ولتبديد أو تقليل الخوف الذى كان يساور البعض من أن تلغى هذه الديون إلغاء تاماً ، وهو الإلغاء الذى يحتمل حدوثه فى أعقاب الحروب »(٣٤) .

ومن الشواهد الدالة على بطء سير الإصلاح فى رومة قبل ذلك للعهد أنه اضطر مرة أخرى أن يحرم استعباد المدين إذا لم يؤد دينه ، وأنه أباح خصم الفوائد التى دفعت قبل ذلك الوقت من أصل الدين ، وحدد سعر الفائدة بواحد فى المائة كل شهر . وأرضت هـــذه الإجراءات معظم الدائنين لأنهم كانوا يخشون أن تصادر أموالهم ، ولكنها أغضبت المتطرفين الذين كانوا يرجون أن يسير قيصر على خطة كاتلين فيلغى الديون كلها ويعيد توزيع الأراضى على السكان ، ووزع قيصر الحبوب على المعوزين وألغى جميع أحكام النفى ما عدا الحكم الصادر على ميلو ، وعفا عن كل من يعود إلى البلاد من الأشراف . ولكن أحداً لم يحمد له اعتداله ، ذلك أن المحافظين الذين عفا عنهم عادوا يأتمرون به ليقتلوه ، وبينما كان يواجه بمبى فى تساليا Thessaly تخلى عنه المتطرفون وانضموا إلى كئيليوس Caelius بعد أن وعدهم بإلغاء الديون إلغاء تاماً ، وبمصادرة الأملاك الواسعة ، وتوزيع الأراضى على الأهلين توزيعاً جديداً .

وفى أواخر عام ٤٩ انضم قيصر إلى الجنود وإلى الأسطول اللذين جمعهما لصاره فى برنديزيوم . وكان عبور جيش من الجيوش البحر الأدرياوى شتاء فى تلك الأيام عملا لم يسمع به أحد قط . ولم يكن فى استطاعة الاثنتى عشرة سفينة التى تحت تصرفه أن تقل من جنوده إلا ستين ألفاً فى كل مرة ، وكانت أساطيل بمبى التى تفوقها عدة وعدداً تغدو وتروح بين ثغور الشاطئ المقابل له والجزائر المجاورة لهذا الشاطئ . ولكن قيصر رغم هذا أقلع بجنوده ، ونزل فى إبيروس ومعه عشرون ألفاً منهم . غير أن سفنه تحطمت وهى عائدة إلى إيطاليا . ولم يعرف

قيصر السبب الذى أخر بقية جيشه ، فحاول أن يعبر البحر مرة أخرى فى زورق صغير : وأخذ الملاحون يجذفون والموج يعاكسهم حتى كادوا يغرقون ، ولكن قيصر لم تهن عزيمته رغم ما كان يحيط به من أهوال جسام ، وأخذ يقوّى قلوبهم بهذه العبارة التى لا يبعد أن تكون من نسج خيال المؤلفين :

« لا تخافوا إنكم تحملون قيصر وحظه »(٣٥) .

ولكن الريح والموج قذفا بالقارب إلى الشـاطئ الذى بدأ منه ، واضطر هو أن يعود من حيث أتى .

وكان بمبى فى هذه الأثناء قد استولى بأربعين ألفاً من رجاله على درشيوم Dyrrhachium ومخازنها الغنية ، ولكنه عجز عن مهاجمة جيش قيصر الذى تناقص عدده وقلّت مؤونته ، وكان بمبى فى تلك الأيام قد سمن وابتلى بالتردد وخور العزيمة . وبينما كان هو فى تردده جمع ماركس أنطونيوس أسطولا جديداً حمل عليه ما كان باقياً من جيش قيصر فى إيطاليا .

وبذلك أصبح قيصر متأهباً للقتال ، ولكنه ما زال يكره أن يقاتل الرومانى رومانيا ، فأرسل رسولا إلى بمبى يعرض عليه أن يتخلى القائدان كلاهما عن قيادتيهما ، ولكن بمبى لم يرد عليه(*) ، فهاجمه وأخفق فى هجومه ، غير أن بمبى عجز أن يتبع النصر بمطاردة عدوه . ثم قتل ضباط بمبى جميع من وقع فى أسرهم من أعدائهم الضباط على الرغم من نصيحة قائدهم الأعلى ، أما قيصر فلم يقتل أحداً من أسراه(٣٧) ، وهو عمل رفع من قوة جنوده المعنوية بقدر ما أضعف من قوة جنود بمبى . وطلب رجال قيصر إلى قائدهم أن يعاقبهم على ما أظهروه من الجبن فى حربهم الأولى ضد الفيالق الرومانية ، فلو لم يجبهم إلى ما طلبوه توسلوا إليه

(*) وقيصر هو المرجع الوحيد الذى نعتمد عليه فى أخبار هذه البعثة .

أن يعود بهم إلى ساحة القتال ، ولكنه رأى من الحكمة أن يرتد إلى تساليا ليستريحوا فيها بعض الوقت .

واستقر رأى بمبي وقتذ على القرار الذى قضى على حياته . فقد أشار عليه أفرانيوس **Afranius** أن يعود إلى إيطاليا الخالية من وسائل الدفاع ويستولى عليها ؛ ولكن معظم مستشاريه ألحوا عليه أن يطارد قيصر ويقضى عليه . وبالغ الأشراف الذين كانوا فى معسكر بمبي فيما أحرزه من النصر فى درهشيوم وظنوا أن القضية الكبرى قد فصل فيها فى ذلك المكان . وهال شيشرون — وكان قد انضم إليهم آخر الأمر — أن يسمعهم يتنازعون فيما سيعود على كل منهم بعد أن يعودوا إلى ما كانوا فيه ، وأن يرى ما يتقلبون فيه من الترف وهم فى ميدان القتال ، فقد كان الطعام يقدم لهم فى صحاف من الفضة ، وكانت خيامهم مفروشة بالطنافس الوثيرة تزينها الصور الرائعة وطاقات الزهر الجميلة .

وكتب شيشرون فى ذلك يقول :

« وكان البمبيون ، ما عدا بمبي نفسه ، يحاربون بوحشية شديدة ، وينطقون فى أحاديثهم بمبادئ القسوة ، حتى كان الرعب يستولى علىّ إذا ما فكرت فى نصرهم . . . إنهم قوم ليس فيهم ما هو خير إلا قضيتهم . . . لقد كانوا يفترضون أن يعدم أعداؤهم جملة لا أفراداً متفرقين . . . وقدر لنتلس نفسه أن يستولى على بيت هورتنسيوس وعلى حدائق قيصر وبايانى »(٣٨) .

وكان بمبي نفسه أميل إلى التريث وعدم الاشتباك فى معركة فاصلة ، ولكنه اضطر إلى العمل برأى مستشاريه لما أن عيروه بالجبن والخور ، فأصدر أمره بالزحف .

ودارت رحى المعركة الفاصلة فى فارسالس فى اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ٤٨ ق.م ، وكانت معركة طاحنة دام فيها القتال حتى نهايتها المريرة ، وكان

جيش بمبي يتألف من ثمانية وأربعين ألفاً من المشاة ، وسبعة آلاف من الفرسان ؛ أما جيش قيصر فلم يكن يزيد على اثنين وعشرين ألفاً من المشاة ، وألفٍ من الفرسان . ويقول أفلوطرخس تعليقاً على هذا الموقف .

« وكان عدد قليل من أنبل رجال رومة يشاهدون المعركة عن كثب ... ويفكرون فيما صارت إليه الإمبراطورية بسبب المطامع الشخصية ... لقد التقت فى هذا المكان زهرة شباب المدينة الواحدة وعماد قوتها فى صراع عنيف ، وحسبنا هذا برهاناً قاطعاً على ما فى الطبيعة البشرية من عمى وجنون إذا ما أثيرت شهواتها »(٤٠) .

لقد كان أقرب الأقارب ، بل كان الإخوة أنفسهم ، يقاتل بعضهم بعضاً فى الجيشين المتعاديين . وقد أمر قيصر رجاله أن يبقوا على حياة كل من يستسلم من الرومان ، أما الشباب الأرستقراطى ماركس بروتس فقد أمرهم قيصر أن يقبضوا عليه دون أن يصيبوه بأذى ، فإذا لم يجدوا سبيلا إلى هذا فليسمحوا له بالفرار(٤١) . وروع البمبيون لتفوق أعدائهم القيادة ، والتدريب ، والقوة المعنوية . وقُتل منهم وجُرح خمسة عشر ألفاً ، واستسلم عشرون ألفاً ، وولى الباقون الأدبار . ونزع بمبي شارة القيادة عن ملابسه ، وفر مع من فروا من رجاله . ويخبرنا قيصر أنه لم يفقد من رجاله إلا مائتين(٤٢) — وهو قول يحملنا على الشك فى كتبه كلها . وأخذ رجاله يتندرون بما فى خيام أعدائهم من وسائل الزينة ، وبما وجدوه فيها من الموائد المثقلة بالطعام الشهى الذى أعد لساعة الاحتفال بالنصر . وأكل قيصر عشاء بمبي فى خيمة بمبي نفسه .

وسار بمبي على ظهر جواده الليل كله حتى وصل إلى لارسا Larissa ، وركب منها سفينة أقلته إلى الإسكندرية ، وعرج فى طريقه على متلينى Mytilene حيث انضمت إليه زوجته ، وطلب إليه سكانها أن يقيم معهم ، ولكنه رفض طلبهم فى أدب ومجاملة ، ونصحهم أن يستسلموا للفاتح فى غير

خوف لأن « قيصر » على حد قوله « رجل عامر القلب بالصلاح والرحمة »(٤٣) ، وفر بروتس أيضاً إلى لارسا ، ولكنه أطال المكث فيها ووجّه منها رسالة إلى قيصر . وأبدى القائد المنتصر أشد الاغتباط حين سمع أن بروتس ، حى يرزق ، وعفا عنه من فوره ، كما عفا عن كاسيوس استجابة لرغبة بروتس . وكان كذلك ليناً فى معاملة أمم الشرق التى أيدت بمبى مدفوعة إلى ذلك بمشيئة الطبقات العليا المسيطرة عليها . ووزع ما جمعه بمبى من الحبوب على سكان بلاد اليونان الجياع ، ولما جاءه الأثينيون يطلبون إليه أن يعفو عنهم ، أجابهم وعلى شفتيه ابتسامة اللوم بقوله : « إلى متى ينجيكم مجد آبائكم الأولين من موارد الهلاك التى توردونها أنفسكم ؟ »(٤٤) .

وأكبر الظن أن بعضهم قد حذر قيصر من أن بمبى يفكر فى معاودة القتال معتمداً على جيش مصر ومواردها ، وعلى القوة التى كان كاتو ولبينس **Labienus** ومتلس سبيو يعدونها فى يتكا **Utica** . ولكن حدث بعد أن وصل بمبى إلى الإسكندرية أن أمر بوثينس **Pothinus** خصى الشاب بطليموس الثانى عشر ووزيرُه خدمه أن يقتلوه ، ولعله فعل ما فعل رجاء أن يكافئه عليه قيصر . فقد طعن القائد طعنة نجلاء حين وطئت قدماه شاطئ مصر ، بينا كانت زوجته تنظر إليه فى هلع وهى على ظهر السفينة التى أقلتهما إلى تلك البلاد . فلما جاء قيصر أهدى إليه رجال بوثينس رأس القائد الذى فصل عن جسده ، فولى وجهه عنهم فى هلع ، وأخذ يبكى من فرط تأثره بهذا الشاهد الجديد على أن الناس كلهم يلقون مصيراً واحداً ، وإن اختلفت الوسائل المؤدية إلى هذا المصير . ونزل قيصر فى قصر البطالمة الملكى وشرع ينظم شئون تلك المملكة القديمة .

الفصل السابع

قيصر وكليوبطرة

وأخذت مصر بعد وفاة بطليموس السادس (١٤٥) تسير مسرعة فى طريق الاضمحلال وعجز ملوكها عن الاحتفاظ بنظامها الاجتماعى أو حريتها القومية ؛ وأخذ مجلس الشيوخ الرومانى يقوى فيها سلطانه ويملى عليها إرادته ، بل إنه أقام حامية رومانية فى الإسكندرية . وكانت مقاليد الحكم قد آلت بعد وفاة بطليموس الحادى عشر الذى أجلسه بمپى وجابليوس على العرش إلى ابنه بطليموس الثانى عشر وابنته كليوبطرة ، وذلك لأن والدهما قد أوصى قبل وفاته أن يرثا الملك من بعده ، وأن يتزوج الأخ أخته ويشتركا فى حكم البلاد معاً .

وكانت كليوبطرة من أصل يونانى مقدونى ، وأكبر الظن أنها كانت أقرب إلى الشقرة منها إلى السمرة(٤٥) . ولم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها الرشيق المعتدل ؛ وخفة روحها ، وتنوع ثقافتها ، ودماثة خلقها ، وحسن صوتها ، مضافة إلى مقامها الملكى قد جعلتها فتنة لكل من رآها تسلبه لبه وإن كان قائداً رومانياً . وكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم ، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية ، ويقال إنها كانت تتقن لغات أخرى غير هذه . وقد جمعت إلى فتنة أسپازيا الذهنية فتنة المرأة المتحللة إلى أقصى حد من القيود الخلقية . ويقال إنها ألفت رسالة فى مستحضرات التجميل ، وأخرى فى المقاييس والموازين والنقود المصرية ، وموضوع الرسالة الثانية موضوع مغر جذاب(٤٦) . وكانت إلى هذا حاكمة قديرة وإدارية ماهرة ، نجحت فى نشر التجارة المصرية ، وارتقت على يديها الصناعة ؛ وكانت تجيد تدبير الشئون المالية حتى فى الوقت الذى كانت تنصب فيه شراك الحب . وقد جمعت إلى هذه الصفات شهوة جسدية قوية ، ووحشية

عنيفة تصب على أعدائها العذاب والموت صباً ، ومطامع سياسية بعيدة ، تحلم ببناء إمبراطورية واسعة ، ولا تحترم فى سبيل الوصول إلى غايتها قانوناً إلا قانون النجاح . ولو أنها لم يجر فى عروقها دم البطالمة المتأخرين الداعرين لكان من الجائز أن تحقق غرضها وتصبح ملكة تحكم دولة واسعة الرقعة تضم بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تدرك أن مصر لم تعد قادرة على البقاء مستقلة عن الدولة الرومانية ، ولم تر ما يمنعها أن تكون هى المسيطرة على الدولة المتحدة .

وقد استاء قيصر حين عرف أن بوثيلس نفى كليوبطرة ، ونصب نفسه نائباً عن بطليموس الشاب يحكم البلاد باسمه ، ولذلك أرسل إليها سراً ، وجاءته سرا وقد احتالت على الوصول إليه بأن أخفت نفسها فى فراش حمله تابعها أپولودورس Apollodorus إلى مسكن قيصر ، وذهل القائد الرومانى حين رآها ، وأسرته بشجاعتها وسرعة بديهتها ، وهو الذى لم يدع انتصاراته فى ميدان القتال تربى على انتصاراته فى ميادين الحب : ووفق بينها وبين بطليموس وأجلسها هى وأخاها على عرش مصر كما كانا من قبل . وعرف قيصر من أخيه أن بوثينس هو والقائد المصرى أخلاس Achillas كانا يأتمران به ليقتلاه ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التى جاءت معه إلى مصر ، فدبر فى الخفاء اغتيال بوثينيس ، وفر أخلاس ، واتصل بالجيش المصرى ، وحرضه على الثورة : وسرعان ما امتلأت الإسكندرية بالجنود ينادون بالويل والثبور لقيصر ، ويحرض ضباط الحامية الرومانية التى وضعها مجلس الشيوخ فى تلك المدينة على الانضمام إلى الجيش الثائر ضد هذا الدخيل الخائن الذى سولت له نفسه أن يقرر وراثة عرش البطالمة ، وأن يعمل على أن يولد من صلبه من يرث هذا العرش فى المستقبل .

وعمل قيصر فى هذا الظرف الحرج ما كانت تسعفه به سعة حيلته ، فأحال القصر الملكى والملهى المجاور له إلى قلعتين تحصن فيهما هو ورجاله . ثم أرسل يطلب المدد من آسية الصغرى وسوريا ورودس : ولما أدرك أن أسطوله الضعيف

الذى لم يكن فيه من يحميه لن يلبث أن يقع فى يد أعدائه ، أمر به فحرق والتهمت النار جزءاً من مكتبة الإسكندرية لا نعرفه على وجه التحديد ورأى أن لا بد له من الاســـتيلاء على جزيرة فاروس لأنها هى المدخل الذى يمكن أن يصل إليه منه المدد المنتظر ، فهاجمها هجوم اليائس ، واستولى عليها ، ثم جلا عنها ، ثم عاد فاستولى عليها ؛ وحدث فى إحدى هذه المعارك أن اضطر إلى السباحة فى البحر لينجو من الموت بعد أن صوبت إليه عاصفة من السهام ، وذلك حين قذف المصريون به وبأربعمائة من رجاله إلى البحر بعيداً عن الحاجز الذى كان يصل الجزيرة بأرض المدينة . وظن بطليموس الثانى عشر أن الثوار قد حالفهم النصر ، فخرج من القصر وانضم إليهم واختفى من التاريخ ؛ ولما جاء المدد إلى قيصر هزم به المصريين وحامية مجلس الشيوخ فى معركة النيل ، وكافأ كليوبطرة على إخلاصها له فى هذه الأزمة بأن عين أخاها الأصغر بطليموس الثالث عشر ملكاً معها على مصر ، فجعلها بذلك حاكمة البلاد الحقيقية .

ويصعب علينا أن ندرك السر فى بقاء قيصر تسعة أشهر فى الإسكندرية ، والجيوش تجيش لقتاله فى يتكا **Utica** ، وروما فى أشد الحاجة إلى يده الصناع ، لأن كثيليوس **Caelius** وميلو ينفخان فيها نار الثورة عليه . فلعله كان يحس بأنه جدير ببعض الراحة واللهو بعد حروب دامت عشر سنين ؛ وفى هذا يقول سيوتونيوس **Suetonius** إنه كثيراً ما كان يقضى الليل كله حتى مطلع الفجر يلهو مع كليوبطرة ، وكان بوده أن يســـير معها فى قاربها من أقصى مصر إلى أقصاها حتى يصلا إلى بلاد الحبشة لولا أن هددة جنوده بالخروج عليه »(٤٧) ، لأن كل واحد منهم لم يجد له فتاة لعوباً ؛ أو لعل شهامته قد أجبرته على أن ينتظر حتى تفيق كليوبطرة من آلام الوضع ، فقد وضعت طفلا فى عام ٤٧ ق . م سمى قيصريون **Caesarion** ، ويقول ماركس أنطونيوس إن قيصر اعترف بأنه ولده(٤٨) . ولا يبعد أن تكون قد أسرت إليه تلك الفكرة الجميلة فكرة أن يكون ملكاً

ويتزوجها فيجتمع بذلك عالم البحر الأبيض المتوسط تحت فراش واحد ؟

ذلك كله ظن وهو إلى ذلك إثم ؛ فليس ثمة ما يؤيده إلا ما نستخلصه من الشواهد والقرائن المفصلة . وما من شك فى أنه عاد إلى نشاطه حين عرف أن فرناسس Pharnaces بن مثرداتس قد استولى مرة أخرى على پنتس Pontus وأرمينية الصغرى ، وأنه أخذ يدعو بلاد الشرق إلى الثورة من جديد على رومة المنقسمة على نفسها . ووضحت فى ذلك الوقت حكمته فى « تهدئة » أسپانيا وغالة قبل لقائه پمپى ؛ فلو أن الغرب ثار عليه وقت أن ثار الشرق لكان من المرجح أن تتصدع أركان الدولة وأن يزحف « البرابرة » نحو الجنوب ، وألا تشهد رومة قط عصر أغسطس . لكن قيصر حال دون ذلك كله ؛ فقد بدأ بإصلاح أمر فيالقه الثلاثة ، ثم غادر مصر فى شهر يونية من عام ٤٧ ق . م ، وسار بسرعته المعتادة على طول شواطئ مصر وسوريا وآسية الصغرى إلى بلاد پنتس وهزم فرناسس فى واقعة زيلا Ziela (٢ أغسطس) ، وبعث من ميدان القتال إلى صديق له بهذا الخبر القصير البليغ : « veni. vidi, vici « جئت ، ورأيت ، وهزمت »[٤٩] وقابله شيشرون عند تارنتم (٢٦ سبتمبر) ، وطلب إليه أن يعفو عنه وعن غيره من المحافظين ، فأجابه إلى ما طلب وأظهر له الرضا والود ؛ وهاله بعد أن عاد إلى رومة أن الحرب الأهلية قد استحالت فى العشرين شهراً التى قضاها بعيداً عنها إلى ثورة اجتماعية ، وأن دلابلا Dolabella زوج ابنة شيشرون انضم بقوته إلى كئيليوس وعرض على الجمعية مشروع قانون بإلغاء جميع الديون ، وأن أنطونيوس أطلق جنوده على صعاليك دلابلا المسلحين ، وأن ثمانمائة من الرومان قتلوا فى السوق العامة . وكان كئيليوس قد استخدم سلطته وهو بريتور Praetor فأعاد ميلو إلى رومة ، ونظما معاً جيشاً فى جنوبى إيطاليا ، وطلبا إلى الأرقاء أن ينضموا إليهما فى ثورة جائحة على النظام القائم . ولم يلقيا فى هذه الثورة إلا قليلا من النجاح ، ولكن روح الثورة كانت قد أشربت بها جميع النفوس ، فكان المتطرفون فى رومة

يحتفلون بذكرى كاتلين وينثرون الأزهار مرة أخرى على قبره : وكان جيش بمبي فى أفريقية قد ازداد عدده حتى أضحى فى قوة الجيش الذي هزم فى فرسالس . وكان سكستس Sextus بن بمبي قد أنشأ فى أسبانيا جيشاً جديداً ، وتعرضت إيطاليا مرة أخرى لخطر انقطاع الحبوب عنها : تلك هى الأحوال التى كانت قائمة فى شهر أكتوبر من عام ٤٧ حين عاد قيصر إلى رومة وإلى زوجته كلبيرنيا Calpurnia ومعه كليوبطرة وأخوها — زوجها الغلام وقيصريون .

وشرع فى الأشهر القليلة التى أتيحت له بين الحروب يعيد النظام إلى رومة . ولما عين حاكما بأمره من جديد استرضى المتطرفين إلى حين بإلغاء القانون الأخير من قوانين صلا ، وألغى فى رومة كل ما قل عن ألفى سسترس من أجر الأراضى ؛ وحاول فى الوقت نفسه أن يهدئ مخاوف المحافظين فعين ماركس بروتس حاكما على بلاد غالة الجنوبية . وأكد لشيشرون وأتكس أنه لن يثير حرباً على نظام الملكية ، وأمر بإعادة تماثيل صلا التى حطمها الرعاع . ولما وجه أفكاره نحو بمبي وأنصاره ساءه وثبط من همته أن يسمع أن أكثر جنوده ولاء له قد ثاروا عليه ، لأنهم لم يتسلموا مرتباتهم من زمن بعيد وأنهم يرفضون الإبحار إلى أفريقية . وكانت خزائن الدولة وقتئذ خاوية أو شبه خاوية ، فجمع ما يحتاجه من المال بمصادرة أموال الأشراف الذين خرجوا عليه وبيعها . ولما سئل فى ذلك قال إنه قد تعلم أن الجند يعتمدون على المال ، وأن المال يعتمد على القوة ، والقوة تعتمد على الجند . ثم ظهر فجاءة بين الجنود المتمردين ، وجمعهم حوله وقال لهم فى هدوء إنه قد سرحهم ، وإن فى مقدورهم أن يعودوا إلى منازلهم ، وإنه سيؤدى إليهم كل ما تأخر من رواتبهم بعد أن يتم له النصر فى أفريقية على يد « غيرهم من الجنود » .

ويقول أبيان إنهم « لما سمعوا هذا القول استولى عليهم الخجل جميعاً لأنهم تخلوا عن قائدهم فى الساعة التى يحيط به العدو من كل جانب . . . فصاحوا بأنهم نادمون على خروجهم عليه ، وتوسلوا إليه أن يحتفظ بهم فى خدمته »(٥١) فأجابهم إلى ما طلبوا فى إباء ساخر ، وأبحر بهم إلى أفريقية .

والتقى فى اليوم السادس من شهر إبريل سنة ٤٦ ق . م بقوى متلس سپيو Metellus Scipio فى ثبسوس وكاتو ولبيلس Labienus وجوبا الأول Juba I ملك نوميديا مجتمعة . وخسر المعركة الأولى فى هذه المرة أيضاً ، ولكنه فعل ما فعله من قبل ، فأعاد تنظيم صفوفه وهجم بها على عدوه وانتصر عليه . ولامه جنوده المتعطشون للدماء على ما أظهره من رأفة بأعدائه فى فرسالس ، واعتقدوا أنه لولا هذه الرحمة لما اضطروا إلى قتال هؤلاء الأعداء مرة أخرى ، ولذلك قتلوا من جنود پمپى الثمانين ألفاً نحو عشرة آلاف ولم تأخذهم بهم رأفة ، لأنهم لم يريدوا أن يلتقوا بهؤلاء الجنود مرة أخرى فى ميدان القتال . وانتحر چوبا وفرّ سپيو ومات فى مناوشة بحرية ، وهرب كاتو ومعه سرية من جنوده إلى يُتِيكا .

ولما اقتفى قيصر أثره وأراد الضباط أن يصدوه عن المدينة ، أقنعهم كاتو بانه لا جدوى من عملهم هذا ، وأعد المال لمن أرادوا القتال ، ولكنه أشار على ابنه بالاستسلام لقيصر . أما هو نفسه فقد رفض كلتا الخطتين ، وقضى السهرة فى بحوث فلسفية ، ثم آوى إلى حجرة نومه ، وقضى شطراً من الليل يقرأ فيدون Phaedo لأفلاطون . وأيقن أصدقاؤه أنه سيقتل نفسه فأخذوا سيفه من جانبه . فلما غفلت عنه أعينهم أمر خادمه أن يأتيه بالسيف ، وتظاهر بالنوم ساعة من الليل ، ثم قام فجاءة وأمسك بسيفه وبقر به بطنه ؛ وهرول إليه أصدقاؤه ، وأعاد الطبيب أحشاءه إلى بطنه ، وخاط الجرح ، وضمده ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون من الحجرة حتى رفع كاتو الضمادات عن الجرح وأعاد فتحه وأخرج منه أحشاءه ، وقضى نحبه .

ولما جاء قيصر كان أشد ما أحزنه أنه لم تتح له الفرصة للعفو عن كاتو ، وأن كل ما يستطيع أن يفعله أن يعفو عن وِلده .

وشيع أهل يُتِيكا الرواقى المنتحر فى مشهد حافل كأنهم يعرفون أنهم يدفنون معه جمهورية كادت تبلغ من العمر خمسة قرون .

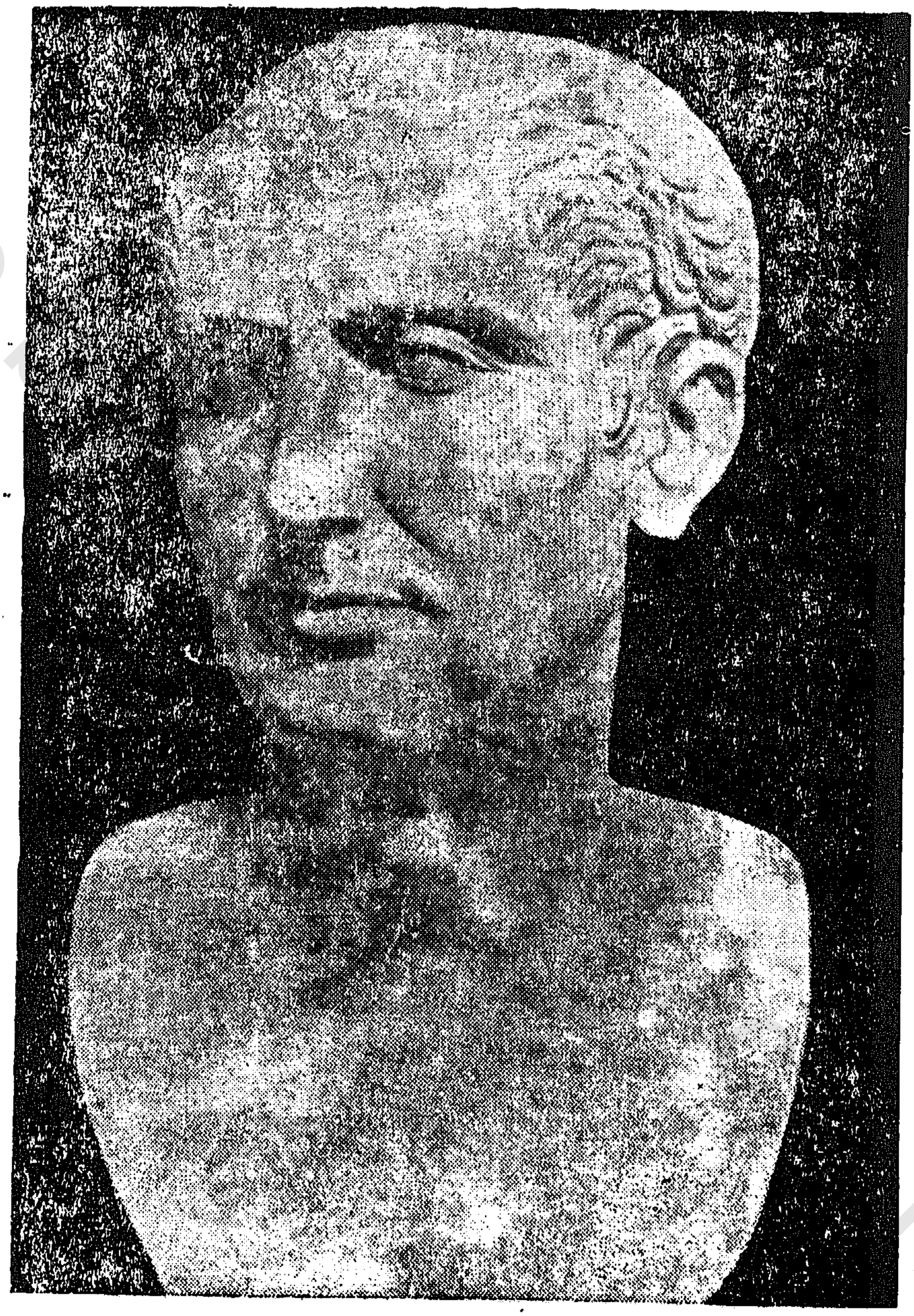

(شكل ١٢) قيصر – المتحف القومى ببنابل

Obeikandl.com

الفصل الثامن

قيصر الحاكم

عاد قيصر إلى رومة فى خريف عام ٤٦ بعد أن نصب سلست والياً على نوميديا ، وأعاد تنظيم ولايات أفريقية ، وأوجس مجلس الشيوخ خيفة من هذه العودة ، وأدرك أن البلاد مقبلة على الحكم الملكى المطلق ، فاختاره حاكما بأمره مدة عشر سنوات . واحتفلت رومة بعودته احتفالا لم تشهد له مثيلا من قبل ، وكافأ قيصر كل جندى من جنوده بخمسة آلاف درخمة أتيكية (حوالى ثلاثة آلاف ريال أمريكى) ، أي أكثر كثيراً مما كان قد وعدهم به ، وأولم وليمة كبرى للمواطنين الرومان احتوت على اثنين وعشرين ألف مائدة . وأعد لتسليتهم معركة بحرية صورية ، اشترك فيها عشرة آلاف رجل . ثم غادر رومة إلى أسپانيا فى أوائل عام ٤٥ وهزم آخر جيش من جيوش پمپي عند منذا Munda .

ولما عاد إلى رومة فى شهر أكتوبر وجد إيطاليا كلها تسودها الفوضى . ذلك أن الحكم الأليجركى الفاسد ، والثورات التى دامت مائة عام كاملة ، قد أشاعا الاضطراب والفوضى فى الأعمال الزراعية والصناعية والمالية والتجارية . أضف إلى هذا أن استنزاف موارد الولايات ، وحبس رؤوس الأموال ، وزعزعة أركان الاستثمار ، أدت كلها إلى اضطراب سوق المال . هذا إلى أن آلاف الضياع قد خل بها الخراب ، لأن مائة ألف من الرجال سيقوا من الأعمال المنتجة إلى ميادين القتال ، وأن آلافاً مؤلفة من الزراع أرغمتهم منافسة الحبوب المستوردة من خارج البلاد أو التى تنتجها الضياع الكبرى التى يعمل فيها العبيد على الانضمام إلى صعاليك المدن والاستماع وبطونهم خاوية إلى الوعود التى يمنيهم بها الزعماء المهرجون . وأخذ من أبقت عليهم رحمة قيصر من الأشراف

يأتمرون به فى قصورهم ونواديهم ، ولما أن طلب إليهم فى مجلس الشيوخ أن يعترفوا بضرورة الدكتاتورية ويعاونوه على أن يعيد النظام إلى البلاد ويأسو جراحها ، سخروا مما يعرضه عليهم هذا المغتصب .وبسطوا ألسنتهم فى استضافته لكليوبطرة فى رومة ، وأخذوا يشيعون سراً أنه يعيد العدة ليكون ملكا ، ولينقل عاصمة الدولة إلى الإسكندرية أو إلى إليوم Ilium .

ومن أجل ذلك شرع قيصر ، وقد أدركته الشيخوخة ولما يتجاوز بعد الخامسة والخمسين من عمره ، يعمل بهمة الرومان الأصيل ليحيى موات الدولة الرومانية . وكان يعلم أن انتصاراته لن تكون لها قيمة إن لم يكن فى مقدوره أن يشيد فى مكان الحطام التى أزالها صرحا أحسن منها وأثبت دعامة . ولما أن مد أجل دكتاتوريته فى عام ٤٤ من عشر سنين إلى دكتاتورية تدوم مدى الحياة لم ير فرقا كبيراً بين الحالين ، وإن لم يكن قد أدرك فى ذلك الوقت أن أجله لن يطول أكثر من خمسة شهور .

وأخذ مجلس الشيوخ يتملقه وحباه بكل ما يستطيع من ألقاب التعظيم ، ولعله كان يهدف بذلك إلى أن يشيع كراهيته فى قلوب الشعب الذى كان يبغض الملكية ولا يطيق حتى اسم الملك . وأجاز له المجلس أن يلبس إكليل الغار الذى كان يوارى به صلعته ، وأن يحمل حتى فى وقت السلم رمز سلطات الإمبراطور imperator . وبفضل هذه السلطات كان يسيطر على خزائن المال ، كما كان منصب الحبر الأكبر Pontifex Maximus يمكن من السيطرة على الشئون الدينية فى البلاد ، وكان له ، بوصفه قنصلا ، أن يقترح القوانين وينفذها ، وبوصفه تربيونا كانت ذاته مصونة لا تمس ، وبوصفه رقيبا كان له أن يعيّن أعضاء مجلس الشيوخ ويسقطهم . واحتفظت الجمعيات بحقها فى الاقتراع على القوانين المعروضة عليها ، ولكن دلابلا وأنطونيوس رجلى قيصر كانا يسيطران عليها ، وكانت توافق عادة على سياسته . وكان هو من ناحيته يجتهد فى أن يقيم

دكتاتوريته على محبة الشعب له ورضائهم عنه شأنه فى هذا شأن غيره من الطغاة الحاكمين

وأنزل مجلس الشيوخ حتى صار أشبه شىء بمجلس استشارى له ، ورفع عدد أعضائه من ستمائة عضو إلى تسعمائة ، وكان يجدده على الدوام باستبدال أربعمائة عضو جديد بمثل عددهم من أعضائه السابقين : وكان كثيرون من هؤلاء الأعضاء الجـــدد من رجال الأعمال ، وكثيرون منهم من المواطنين البارزين فى المدن الإيطالية أو مدن الولايات الرومانية ، ومنهم من كانوا من أعضاء المئين أو الجنود أو أبناء العبيـــد . وارتاع الاشراف حين رأوا زعماء غالة المغلوبة يدخلون مجلس الشيوخ وينضمون إلى حكام الإمبراطورية ، بل إن الماجنين من أهل العاصمة قد ساءهم هذا التصرف ونشروا فى طول المدينة وعرضها مقطوعة شعرية يقولون فيها « إن قيصر يقود الغاليين فى موكب نصره ، ثم يدخلهم مجلس الشيوخ ؛ لقد خلع الغاليون سراويلهم القصيرة ولبسوا المئزر العريض الأطراف » الذى يلبسه الشيوخ(٥٢) .

ولعل قيصر قد تعمد أن يجعل المجلس الجديد هيئة ضخمة عاجزة عن المداولة الجدية المنتجة أو المقاومة الموحدة . ولذلك اختار طائفة من طائفة من أصدقائه هم بلبس **Balbus** ، وأپيوس **Oppius** ، وماتيوس **Matius** وغيرهم ، ليتخذ منهم وزراء له غير رسميين ينفذون سياسته ؛ وأدخل النظام البيروقراطى فى الدولة بأن وضع الشئون الكتابية فى دولاب الحكومة ودقائق الأعمال الإدارية فى أيدى من كان فى بيته من المحرَّرين والرقيق . وسمح للجمعية أن تختار نصف كبار الحكام فى المدينة ، واختار هو النصف الباقى بطريق التوصية ، وكانت الجمعية تأخذ بهذه التوصيات على الدوام . وكان من حقه ، بوصفه تربيونا ، أن يعترض على قرارات غيره من التربيونين والقناصل ويبطلها ، ورفع عدد البريتورين **Praetors** إلى ستة عشر ، والكوسترين **Quaestors** إلى أربعـــين لينجز بذلك

أعمال البلدية والأعمال القضائية ، وراقب بنفسه شئون المدينة كلها على اختلاف أنواعها ، وقضى على كل ما كان فيها من عجز وفساد وإتلاف ، ونص فى جميع العهود التى منحها للمدينة على الأوامر الصريحة والعقوبات الشديدة التى يتعرض لها كل من يحاول إفساد الانتخابات أو الوظائف العامة . . وأراد أن يقضى على السُّنة القديمة سُنّة السيطرة على الشئون السياسية بابتياع أصوات الناخبين جملة . ولعـــله أراد أيضاً أن يحصن نفسه من ثورة الرعاع ، فألغى الاتحادات والنقابات ولم يبق منها إلا ما كان ذا أصل قديم ، وإلا الجماعات اليهودية ذات الأغراض الدينية الخالصة ؛ وقصر وظائف المحلفين على الطبقتين العليين واحتفظ لنفسه بحق النظر فى أهم القضايا وأخطرها شأنا ، وكثيراً ما كان يجلس للقضاء بنفسه ، وليس ثمة من ينكر ما تتصف به أحكامه من حكمة ونزاهة . وقد اقترح على المشترعين فى أيامه أن يجمعوا القوانين الرومانية المعمول بها وقتئذ فى كتاب واحد منظم ، ولكن موته العاجل حال دون إتمام هذا المشروع .

ثم سار على خطة ابنى جراكس ، فوزع الأرض على جنوده القدامى وعلى الفقراء ، وسار أغسطس نفسه على هذه السياسة ، فهدأت الاضطرابات بين الزراع كثيراً من السنين ؛ وأراد أن يمنع عودة الملكية الزراعية إلى التركز فحرّم بيع الأراضى الجديدة قبل مضىّ عشرين عاما ، كما أمر أن يكون ثلث العمال فى المزارع من الأحرار ، وذلك لكى يحول دون استغلال الأراضى كلها على أيدى الأرقاء ؛ وكان من قبل قد أنقص عدد الرعاع المتعطلين فى المدينة بمن جنده منهم فى الجيش ، وبإقطاعهم الأرض الزراعية بعد تسريحهم . ثم أنقص عددهم مرة أخرى بأن أرسل ثمانين ألفا من المواطنين ليستعمروا قرطاجنة وكورنثة وأشبيلية وأرليس وغيرها من المراكز . ولم يكتف بهذا بل أراد أن يضمن العمل للباقين من المتعطلين فوضع برنامجاً ضخماً للبناء رصد له ١٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس . من ذلك أنه أمر بإنشاء بناء جديد فى ميدان المريخ لاجتماع الجمعيات ، وإضافة مبنى

جديد للسوق العامة يدعى سوق أبوليوم لتخفيف الزحام عن السوق القديمة ؛ ثم جمل كثيراً من المدن فى إيطاليا وأسپانيا وغالة وبلاد اليونان ؛

وبعد أن خفف أعباء الفقر بهذه الوسائل أراد أن يعرف أثرها فى الناس ، فطلب إلى من شاء من الفقراء أن يتقدم إلى الدولة بالحصول على إعانات من الحبوب ، فوجد أن عدد الطالبين قد نقص على الفور من ٣٢٠ر٠٠٠ إلى ١٥٠ر٠٠٠ .

وقد ظل حتى ذلك الوقت نصيراً للعامة ، يهدف إلى إسعادهم فى جميع ما وضعه من المشروعات . ولكنه كان يعلم أن الثورة الرومانية ثروة زراعية أكثر منها صناعية ، وأنها موجهة فى الغالب إلى طبقة الأشراف التى تسخر لخدمتها الأرقاء ، ثم إلى المرابين ، وأنها لم يوجه إلا القليل منها لرجال الأعمال . فواصل خطة ابنى جراكس الزراعية ، ودعا رجال الأعمال إلى تأييد الثورة الزراعية والمالية .

وكان شيشرون قد حاول أن يعقـــد حلفاً بين الطبقات الوسطى والأشراف ، أما قيصر فحاول أن يؤلف بين أولئك وبين العامة ، وأمده بالمال كثيرون من الممولين على اختلاف درجاتهم من كراسسس إلى بلبس ، كما أمد الكثيرون من أمثالهم بالمال الثورتين الأمريكية والفرنسية . ولكن قيصر رغم هذه المعونة قضى على مصدر من أكبر مصادر الاستغلال المالى والربح غير المشرع — وهو جباية الضرائب فى الولايات على أيدى جماعات الملتزمين . ثم خفض الديون بدرجات متفاوتة ، وسن قوانين صارمة لتحريم الربا الفاحش . وأسعف العاجزين عجزاً شديداً عن الوفاء بديونهم بوضع قانون للإفلاس لا يختلف فى جوهره عن القانون المعمول به فى هذه الأيام ؛ وأعاد إلى العملة استقرارها بجعل الذهب أساسا لها ، وبصك قطعة ذهبية تدعى أوريوس Aureus كانت تساوى فى قوتها الشرائية الجنيه الاسترلينى فى القرن التاسع عشر ، وكانت صورته تطبع على النقود

الحكومة وتزيّن برسوم لم تعرفها رومة من قبل :

وقد نظمت الإدارة المشرفة على مالية الدولة تنظيما جديداً ، وطعمت بكفايات جديدة كانت نتيجتها أن وجد فى خزائنها حين قتل قيصر ٧٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس ، وفى خزينته الخاصة ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠

وأراد أن يقيم نظام الضرائب والإدارة على أساس علمى سليم ، فأجرى إحصاء عاما فى إيطاليا وأعد العدة لإحصاء عام مثله فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، ثم أراد أن يعوّض النقص الكبير الذى أحدثته الحروب فى عدد المواطنين الرومان ، فتوسع إلى أقصى حد فى منح حق المواطنية الرومانية — وكان ممن شملهم هذا الحق الأطباق والمعلمون فى رومة . وكان النقص المطرد فى المواليد قد أقضّ من قبل مضجعه ، فقرر فى عام ٥٩ ق . م أن تكون الأولوية فى امتلاك الأراضى التى توزعها الحكومة لآباء الثلاثة الأبناء . والآن قرر منح مكافآت للأسر الكبيرة ، وحرم على من ليست لهن أبناء من النساء أن يركبن المحفات أو يتحلين بالجواهر — وكان هذا التشريع أضعف تشريعاته كلها وأقلّها نفعاً .

وظل قيصر كما كان رجلا لا أدريا وإن لم يكن عقله بعيداً كل البعد عن الخرافات(٥٣) . ولكنه بقى الرئيس الأعلى لدين الدولة ولم يبخل على هذا الدين بما يحتاجه من الأموال ، فأعاد بناء الهياكل القديمة وأنشأ هياكل أخرى جديدة . وكانت فينوس أمه الحنون تلقى منه أعظم ضروب التكريم ، لكنه مع هذا كان يطلق للناس كامل الحرية فى الفكر والعبادة ، وألغى ما كان قد صدر من الأوامر بتحريم عبادة إيزيس ، ومنع التعرض لليهود فى ممارسة شعائر دينهم . ولما رأى أن تقويم الكهنة لم يعد يتفق مطلقاً مع فصول السنة أمر سوسجينس Sosigenes العالم اليونانى الاسكندرى السنة من ذلك الحين تشتمل على ٣٦٥ يوماً ، يضاف إليها يوم فى آخر شهر فبراير كل أربع سنين . وأخذ شيشرون يشكو من هذا

التغيير ويقول إن قيصر لم يقنع بحكم الأرض فتطاول إن تنظيم النجوم والتحكم فى شئونها ، ولكن مجلس الشيوخ قبل هذا الإصلاح أحسن قبول ، وأطلق اسم يوليوس وهو اسم أسرة قيصر على شهر كونكتيلس Quinctilis (الشهر الخامس) وكان هذا الشهر هو الشهر الخامس حين كان شهر مارس بداية العام :

ولم تكن الأعمال التى شرع فيها قيصر أو فكر فيها ووقفت بسبب قتله أقل شأناً من الأعمال التى تمت فعلا . ومن هذه الأعمال الأولى أنه وضع أساس ملهى عظيم ، ومعبد للمريخ يتفق وما عرف عن هذا الإله من شره ونهم ، وعين ثارو على رأس هيئة تعمل لإنشاء دور كتب عامة . وعمل على إنقاذ رومة من وطأة الملاريا بتجفيف بحيرة فوسينس Fucinus ومنافع پنتين Pontine ، واستصلاح الأراضى المجففة وزرعها . وأشار ببناء جسور حول التيبر ليمنع طغيان مياهه على الأرض المجاورة له ، واقترح تحويل مجرى هذا النهر لإصلاح ميناء أستيا Ostia الذى كان غرين النهر يسده من آن إلى آن . وأمر مهندسيه بأن يعدوا مشروعاً يرمى إلى إنشاء طريق يخترق وسط إيطاليا من الشرق إلى الغرب وإلى حفر قناة فى برزخ كورنثة Corinth .

وكان أشد ما أغضب أهل رومة من أعماله أن منح أحرار الإيطاليين كلهم ما لأهل رومة نفسها من حقوق ، وأن سوى بين الولايات وبين إيطاليا . ذلك أنه منح حق الانتخاب لأهل غالة الجنوبية فى عام ٤٩ ، ثم وضع فى عام ٤٤ ميثاقاً يدل ظاهره على أنه لجميع مدن إيطاليا وأنه يسوى بين هذه المدن وبين رومة ، ولكن أكبر الظن أنه كان يفكر فى إقامة حكومة نيابية من نوع ما تجعل لهذه المدن نصيباً دمقراطياً فى حكومته الملكية(٥٥) :

ثم انتزع حق تعيين الولاة من مجلس الشيوخ المرتشى الفاسد ، ورشح هو لهذه المناصب رجالا عرفوا بالمقدرة والكفاية ، وجعلهم فى كل آن عرضة للعزل بأمر منه وحده . وخفض الضرائب فى الولايات إلى ثلثى ما كانت

عليه ، وعهد جبايتها إلى موظفين مسئولين أمامه . ولم يأبه باللعنات القديمة التى كانت تصب على من يعيد بناء كبوا وقرطاجنة وكورنثة ؛ وأتم فى هذه الناحية أيضاً ما شرع فيه ولدا چراكس ، وأعطى حقوق الرومان أو اللاتين للمستعمرين الذين أرسلهم لإنشاء عشرات المدن الممتدة من جبل طارق إلى البحر الأسود ، أو لتعمير ما كان قائماً منها من قبل . ولا جدال فى أنه كان يريد أن يمنح حق المواطنية الرومانية لجميع الذكور الراشدين فى الإمبراطورية كلها ، وبذلك لا يكون مجلس الشيوخ ممثلا لطبقة واحدة فى رومة بل يكون ممثلا لعقلية الولايات جميعها وإرادتها . وهذه الفكرة التى سيطرت على عقل قيصر فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم ، مضافة إلى تنظيمه الجديد لرومة وإيطاليا ، تكمل فى رأينا تلك المعجزة المنقطعة النظير — المعجزة التى جعلت من الشاب المتلاف العربيد رجلا من أقدر رجال السياسة المشئومة فى جميع العصور وأعظمهم شجاعة وعدلا واستنارة .

وكان قيصر كالإسكندر لا يعرف أين تقف جهوده وإصلاحاته ؛ فلما أن رسم فى ذهنه صورة لدولته فى نظامها الجديد ساءه أن يجدها معرضة للغزو عند أنهار الفرات والدانوب والرين ، فأخذ يفكر فى إرسال حملة عظيمة لإخضاع پارثيا والأخذ بثأر كراسس الذى أمده بالمال فى أزماته ، وفى الزحف حول البحر الأسود لتهدئة سكوذيا Scythia ، وفى ارتياد نهر الدانوب وفتح ألمانيا[١٦] . حتى إذا ما أمن الإمبراطورية على هذا النحو عاد إلى رومة مثقلا بالمجد والمغانم ، ومعه من المال ما يستطيع به أن يقضى على الكساد الاقتصادى فى البلاد ، وله من القوة والجاه ما يستطيع به أن يغض الطرف عن كل معارضة ؛ ومن الحرية ما يمكنه من أن يعين من يخلفه ، وأن يموت بعد أن يورث العالم « السلم الرومانية » Pax Romana ، وهى أعظم تراث يستطيع أن يورثه إياه

الفصل التاسع

بروتس

ولما تسربت أنباء هذه الخطة إلى رومة رحب بها العامة الذين يحبون المجد ، وتلمظ لها رجال الأعمال إذ شموا فيها رائحة الحرب ، وتصوروا المطالب تنهال عليهم لصنع العتاد ، وتصوروا الولايات تنهب وتتكدس فى خزائنهم الأموال ؛ أما الأشراف فرأوا الفناء يحل بهم عند عودة قيصر ، ولذلك عقدوا النية على قتله قبل أن يغادر البلاد .

وكان قيصر قد عامل هؤلاء الأشراف معاملة كريمة أطلقت لسان شيشرون بالثناء عليه . وكان قد عفا عن كل من استسلم له من أعدائه ، ولم يحكم بالإعدام إلا على عدد قليل من الضباط الذين خانوا عهده فحاربوه بعد أن هزمهم وعفا عنهم ؛ وكان قد أحرق كل الرسائل التى عثر عليها فى خيمة بمبى وسبيو من غير أن يقرأها ، وأرسل ابنة بمبى وأحفاده الأسرى إلى سكتس ابن بمبى ، وكان لا يزال فى حرب معه ، وأصلح تمثال بمبى وأقامه فى موضعه بعد أن طرحه أتباعه على الأرض ؛ وعين بروتس وكاسيوس واليين على اثنتين من الولايات ، كما عين غيرهما من الأشراف فى بعض المناصب العليا ، وصبر على كثير من الأذى والمثالب دون أن يشكو أو يتذمر ، ولم يتخذ شيئاً من الإجراءات ضد من كان يظن أنهم يأتمرون به ليقتلوه . أما شيشرون الذى طالما لبس لكل حالة لبوسها ، وأدار شراعه لكل ريح ، فإن قيصر لم يكتف بالعفو عنه بل كرمه ولم يبخل عليه بشىء مما طلبه الخطيب العظيم لنفسه أو لأصدقائه البمبيين ، بل إنه انصاع لإلحاف شيشرون ، فعفا عن ماركس مرسلس وهو الرجل الذى خرج على قيصر ولم يندم على فعله ؛ وقد امتدح شيشرون فى خطبة له رنانة عنوانها « إلى مرسلس »(٥٦)

« كرم قيصر الذى لا يصدقه العقل » ، وقال عن بمبى إنه لو انتصر لكان أشد منه انتقاما من أعدائه . ثم أضاف إلى ذلك قوله : « لقد سمعت مع الأسف الشديد عباراتك الفلسفية الشهورة lam satis vivi لقد نلت كفايتى من طول الحياة ومن الشهرة . . . ورجائى إليك أن تطرح حكمة الحكماء . . . ولا تكن حكيما إذا عرضتك هذه الحكمة للأخطار . . . إنك لا تزال بعيداً كل البعد عن إنجاز أعمالك العظيمة ، بل إنك لم تضع بعد أسسها » ثم وعد قيصر وعداً صادقاً باسم مجلس الشيوخ كله بأنهم سيسهرون على سلامته ويصدون بأجسامهم كل اعتداء عليه(٥٧) . وأثرى شيشرون فى ذلك الوقت ثراء جعله يفكر فى شراء قصر آخر له ولم يكن هذا القصر غير قصر صلا نفسه . وكان يستمتع بالمآدب التى يدعوه إليها أنطونيوس ويلبس وغيرهما من أعوان قيصر ، ولم تكن رسائله فى أى وقت مضى أكثر بهجة مما كانت فى ذلك الوقت(٥٨) . غير أن قيصر لم ينخدع بهذا كله ، فقد كتب إلى ماريوس يقول : « إذا كان فى الناس من هو ظريف فذاك شيشرون ولكنه يبغضنى أشد البغض »(٥٩) . وكان قيصر صادقا فى قوله ، فلما أن عاد البمبيون إلى مناوأة قيصر بعد أن أمنوا جانبه ارتمى هذا الأديب التلرانى(*) فى أحضانهم وكتب يثنى على كاتو الأصغر ثناء ما كان أجدره بأن ينبه قيصر إلى ما يحيط به من الأخطار . غير أن قيصر لم يفعل أكثر من أن يرد على شيشرون بكتابة ضد كاتو Anti-Cato لا تدل على حصافة عقله . ذلك أنه بعمله هذا أمكن خصمه من أن يختار السلاح الذى ينازله به ، وكانت نتيجة هذا أن انتصر الخطيب عليه ، وأثنى الرأى العام على أسلوب شيشرون كما أثنى على الحاكم الذى اختار أن يكتب رسالة وهو قادر على أن يوقع أمراً بالإعدام .

وبعد فإن الذين حرموا ما كان لهم من سلطان لا يمكن أن تسئل سخائمهم

(*) الشبيه فى أخلاقه بتلران السياسى الفرنسى الشهير (١٧٥٤ — ١٨٣٨) .

بالعفو عن مقاومتهم لمن حرمهم هذا السلطان ، وليس عفوك عمن عفا عنك بأقل صعوبة من عفوك عمن آذيته . ومصداق هذا أن الأشراف فى مجلس الشيوخ الذى لم يكن يجرؤ على رفض المقترحات التى عرضها عليه قيصر حسب الأصول الدستورية أخذوا يتبرمون ويندمون تنديد الوطنيين الصادقين بالقضاء على الحرية التى أتخمت بالمال خزائنهم ، وعز عليهم أن يقروا بأن عودة النظام تتطلب التضحية ببعض حريتهم . وقد روعهم وجود كليوبطرة وقيصريون فى رومة . نعم إن قيصر كان يعيش مع زوجته كليبرنيا وإنهما كانا يتبادلان المحبة فى الظاهر ، ولكن منذا الذى يعرف — ومنذ الذى تطاوعه نفسه على ألا يذيع — ما كان يحدث فى أثناء زياراته الكثيرة للملكة العظيمة الجميلة ؟ وأكدت الشائعات أنه يريد أن ينصب نفسه ملكا ، وأن يتزوج كليوبطرة ، وأن ينقل عاصمة دولتهما المتحدة إلى بلاد الشرق . ألم يأمر بأن يقام له تمثال على الكپتول بجوار تماثيل ملوك رومة الأقدمين ؟ — ألم تطبع صورته على النقود الرومانية ؟ وهى وقاحة لم يسبق يسبق لها نظير . ألم يلبس جلابيب أرجوانية من اللون الذى كان يحتفظ به عادة للملوك ؟ لقد جاءه القنصل أنطونيوس يوم عيد لپركاليا فى الخامس عشر من فبراير عام ٤٤ عارى الجسد إلا من جلود الماعز التى كان يلبسها الكهنة فى ذلك العيد(*) ثملا من كثرة ما احتسى من الخمر ، وحاول ثلاث مرات أن يضع التاج الملكى على رأس قيصر ؛ ورفضه قيصر فى المرات الثلاث ؛ ولكن ألم يكن سبب هذا الرفض أن الجماهير قد أبدت غضبها من هذا العمل وإن أبدته همساً ؟ ألم يقصن التربيونين عن منصبيهما لأنهما رفعا عن تمثاله الإكليل الملكى الذى وضعه عليه أصدقاؤه ولما أقبل عليه الشيوخ وهو جالس فى هيكل ڤينوس لم يقم واقفاً لاستقبالهم . وقال بعضهم إنه قد أقعدته وقتئذ نوبة صرع ، وقال غيرهم إنه كان يشكو إسهالا شديداً ، وإنه ظل جالساً حتى لا تتحرك أمعاؤه فى هذه اللحظة غير

(*) انظر ما قلناه عن الأعياد فى الفصل الثانى من الباب الرابع .

الرواتية[٦٠] ، ولكن كثيرين من الأشراف كانوا يخشون أن ينادى به ملكا فى أى يوم .

وأقبل كيون كاسيوس ، وهو رجل مريض الجسم — « أصفر نحيل » كما يصفه أفلوطرخس[٦١] ، على ماركس بروتس واقترح عليه اغتيال قيصر . وكان قبل ذلك قد عرض خطته على جماعة من الشيوخ وعلى بعض الممولين الذين قل ما ينهبونه من الولايات مذ وضع قيصر القيود الشديدة على الملتزمين ، بل عرضها أيضاً على بعض القواد فى جيش قيصر الذين أحسوا بأن ما حباهم به من المناصب والغنائم كان أقل مما يستحقون ، وكان هؤلاء كلهم قد وافقوه عليها . وكان المتآمرون فى حاجة إلى بروتس ليكون هو رافع لواء المؤامرة ، لأنه اشتهر بين الناس كافة بأنه أعظم الناس استمساكا بالفضيلة ، وكان الناس يقولون إنه من سلالة بروتس الذى طرد الملوك قبل ذلك الوقت بأربعمائة وستة وأربعين عاماً . وكانت أمه سرڤليا أختا غير شقيقة لكاتو ، وزوجته پورشيا ابنة كاتو وأرملة بيبولس عدو قيصر ؛ ويقول أپيان « إن الناس كانوا يظنون أن بروتس نفسه ابن قيصر لأن قيصر كان عشيق سرڤليا فى الوقت الذى ولد فيه بروتس »[٦٢] . ويضيف أفلوطرخس إلى ذلك أن قيصر كان يعتقد أن بروتس ولده[٦٣] . ولا يبعد أن يكون بروتس نفسه ممن يعتقدون هذا الاعتقاد ، وأنه كان يحقد أشد الحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضغة فى أفواه الرومان ، يقولون عنه إنه ابن زانية بدل أن يكون من نسل آل بروتس . وكان هو على الدوام مكتئباً يميل إلى الصمت كأن ظلماً حل به يجثم على صدره ويشغل باله ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه فخوراً معجباً بنفسه ، لأنه أيا كان مولده يجرى فى عروقه دم الأشراف . وكان يجيد اللغة اليونانية ويحب الفلسفة ، وكان فى علم ما وراء الطبيعة من القائلين برأى أفلاطون ، وفى الأخلاق من أتباع زينون . وكان مما انطبع فى ذهنه أن الرواقية تتفق مع المبادئ اليونانية والرومانية فى الحث على قتل الطغاة الظالمين ، وقد كتب

فى هذا إلى صديق له يقول : « إن آباءنا كانوا يعتقدون أنه لا ينبغى لنا أن نخضع للمستبد ولوكان هذا المستبد أبانا نفسه »(٦٤) . وقد ألف رسالة فى الفضيلة وخلط الناس فى المستقبل بينه وبين هذا الوصف ، وإن كان بعيداً عنه . فقد أقرض أهل سلاميس Salamis فى قبرص عن طريق بعض الوسطاء أموالا بسعر ثمانية وأربعين فى المائة ، ولما تذمروا من أداء ما تراكم عليهم من الفوائد ألح على شيشرون ، وكان وقتئذ قنصلا فى قليقية ، أن يستعين بالجيوش الرومانية على جمع المال(٦٥) . وقد حكم غالة الجنوبية حكماً صالحاً يمتاز بحسن الإدارة والكفاية ، ولما عاد إلى رومة عينه قيصر بريتوراً Praetor على الحواضر .

وقد ثار كل عنصر طيب فيه على مقترحات قيصر ، وأخذ كاسيوس يذكره بآبائه الذين ثاروا على الظلم ، ولعل بروتس قد شعر بأنه يتحداه بأن يثبت أنه من نسلهم وبأن يحذو حذوهم . وكان هذا الشاب الحساس يحمرّ وجهه خجلا حين يرى تمثال بروتس الأكبر أمثال هذه العبارة :

« أى بروتس ! هل مت ؟ وإلا فإن آباءك برآء منك »(٦٦) .

وقد أهدى إليه شيشرون عدة من رسائله كتبها فى تلك السنين ، وسرت فى ذلك الوقت بين الأشراف شائعة فحواها أن لوسيوس كتا Lucius Cotta سيعرض على مجلس الشيوخ فى اجتماعه المقبل الذى سيكون فى الخامس عشر من شهر مارس اقتراحا بتنصيب قيصر ملكا ، لأن عرّافة سيبيل قالت إن البارثيين لن يهزموا إلا على يد ملك(٦٧) . وقال كاسيوس إن المجلس ، وقد أصبح نصف أعضائه ممن عينهم قيصر ، سوف يوافق على هذا الاقتراح ، وإنه لن يبقى بعد ذلك أمل فى عودة الحكم الجمهورى . وتأثر بروتس بهذا كله ، واستسلم ، وأخذ المتآمرون بعد ذلك يحكمون أمرهم ويضعون خططهم ؛ واستخلصت پورشيا

السر من زوجها ، بأن طعنت نفسها بخنجر فى فخذها لتبرهن بذلك على أنه ما من أذى يصيبها فى جسمها يحملها على أن تنطق بشىء رغم إرادتها . وأصر بروتس فى لحظة غير مواتية له على ألا يمسّ أنطونيوس بأذى .

وحدث فى مساء اليوم الرابع عشر من شهر مارس أن عرض قيصر على من كانوا مجتمعين فى منزله أن يكون موضوع حديثهم « ما هى خير طريقة للموت ؟ » وأجاب هو عن ذلك السؤال بقوله : « إنها الميتة المفاجئة » . وتوسلت إليه زوجه فى صباح اليوم الثانى ألا يذهب إلى مجلس الشيوخ ، وقالت إنها رأته فى نومها ملطخاً بالدماء ؛ وحاول خادم آخر ، كان يرى مثل رأيها ، أن يفتعل نذيراً بمنع قيصر من الذهاب ، فتسبب فى سقوط صورة لأحد أسلافه معلقة على جدار ، ولكن دسمس بروتس Decimus Brutus ، وهو صديق حميم لقيصر وأحد المتآمرين ، ألح عليه أن يحضر الاجتماع وإن لم يفعل فيه أكثر من أن يطلب بنفسه فى رقة ومجاملة تأجيل الجلسة إلى وقت آخر . وأقبل صديق لقيصر حرف نبأ المؤامرة ليحذره فوجده قد غادر داره فى طريقه إلى المجلس . وقابل فى طريقه عرّافا كان قد أسرّ إليه من قبل أن « يحذر اليوم الخامس عشر من شهر مارس » وقال له قيصر وهو يبتسم ، إن الخامس عشر من مارس قد جاء ولم يصب فيه بسوء ، فأجابه اسبورنا Sburinna « نعم ولكنه لم يمض بعد » .

وبينما كان قيصر يقرّب القربان الذى كان من المألوف تقريبه قبل الجلسة أمام ملهى بمبى حيث يعقد المجلس اجتماعه إذ وضع أحدهم فى يده لوحة صغيرة يحذره فيها من المؤامرة ولكنه لم يعبأ بها . وتقول الرواية المأثورة إن هذه اللوحة وجدت فى يده بعد مقتله(*) .

(*) وردت هذه القصص الخاصة باليوم الخامس عشر من مارس فى مؤلفات سيوتونيوس وأفلوطرخس وأپيان (٦٨) ، ولكنها رغم ورودها فى هذه المؤلفات كلها قد لا تكون إلا خرافة من الخرافات .

وشغّل تربونيوس Trebonius — وهو أحد المتآمرين ، وكان من قبل، أحد قواد قيصر المقرّبين — أنطونيوس بالحديث فعطله عن حضور الاجتماع : ولما دخل قيصر الملهى واتخذ فيه مجلسه هجم « دعاة الحرية » من فورهم عليه ، ويقول سيوتونيوس : « لقد كتب بعضهم يقولون إنه حين هجم عليه ماركس بروتس قال باللغة اليونانية Kai su teknon — « وأنت أيضاً يا ولدى »[٦٩] ؛ ويقول أپيان إن قيصر حين طعنه بروتس امتنع عن كل مقاومة ، وغطى وجهه ورأسه بثوبه ، واستسلم للضربات ، وسقط عند قدمى تمثال بمپى[٧٠]. وهكذا تحققت رغبة واحدة من رغبات أكمل إنسان أنجبته الأيام الخالية(*).

(*) يقصد بهذه الرغبة ميتته المفاجئة . وقد روى شيكسپير فى مسرحيته الذائعة الصيت هذه الحوادث كلها ووصفها أروع وصف . (المترجم)